

وزارة الحربية والبحرية

المتحف الحربي

قلعة مصر

من السلطان صلاح الدين
إلى الملك فاروق الأول

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم ا.د. فريـد الشافعـي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

وزارة الحربية والبحرية

المتحف الحربى

قلعة مصر

من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول

القائمقام

عبد الرحمن زكى

مدير المتحف الحربى

وعضو المجلس الأعلى للآثار العربية

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٥٠

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

منذ كتب العلامة المقريزى ، المؤرخ المصرى ، كتابه المعروف " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " وزميله الإمام القلقشندى مؤلفه المشهور " صبح الأعشى " لم يتناول سواهما بالبحث تاريخ قلعة الجبل (القاهرة) . حتى وفد على مصر المستشرق كازانوفا . فنشر رسالته الكبيرة عن تلك القلعة الخالدة ، ووفى بحثه كاملا من الناحية التاريخية .

وفى الثلث الأول من القرن العشرين ، حل بهذه البلاد الكابتن " كريزويل " أحد ضباط الجيش البريطانى ، فأنكب بشغف على دراسة الآثار الاسلامية فى مصر وغيرها من بلاد المشرق الوسيط ، وكانت قلعة القاهرة (الجبل) احدى دراساته التى شملها بعناية بالغة ، تلبية لتشجيع ورعاية حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول .

وقد عكف الجندى والأثرى " كريزويل " عدة سنوات يقوم ، بأبحاثه الأثرية فى القلعة ، حتى وفق بعد سنوات الى تدوين ملاحظاته الممتازة ، ونشرها له المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، مزودة بالرسوم والصور التى توخى فيها العناية والدقة . فتأتى عمله جديرا بما تستحقه قلعة القاهرة من مكانة سامية فى عالم الآثار الاسلامية .

وفى عام ١٩٤٧ ، عندما أمر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بنقل المتحف الحربى الى قصر الحرم بالقلعة ، استحثتنى تلك الرعاية الملكية الضافية واللفتة الكريمة إلى تصنيف كتاب حديث عن قلعة القاهرة ، مهد

التاريخ المصرى فى خلال سبعمائة عام ، أتوجه به اليوم الى مواطنى الأعزاء ولعلى أكون قد حظيت بالتوفيق فى سد ثغرة فى تاريخ أعظم أثر أسلامى تفخر به البلاد .

ولكى لايجئ مادة الكتاب من النوع العلمى الجاف ، رأيت أن أضفى على القلعة طرفا من ذكرياتها وأحداثها التاريخية وما أكثرها منذ شيدها الوزير الفذ قره قوش على عهد منشئها السلطان العظيم صلاح الدين الى أن اعاد اليها مجدها السالف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول

وإنى لأشعر بالفخر العظيم لانتهائى من كتابة هذا المؤلف ، لا لما بذلته فيه من جهد أو ما عانيت من مشقة فحسب ، وإنما لأنه موضوع جدير بالبحث ، وأثره خالد على الزمن .

وأرى نفسى مدينا حتما إلى كافة الأئمة والأعلام المصريين وغير المصريين ، ممن اعتمدت عليهم على مؤلفاتهم الخالدة ، وحسبى أن أنال رضاءهم ورضاء القراء

هدانا الله سواء السبيل ، فى ظل راعى العلوم والفنون والآثار ، مليكنا العالم العظيم فاروق الأول حفظه الله .

يناير سنة ١٩٥٠ القائمقام

عبد الرحمن زكى

مدير المتحف الحربى

قلعة القاهرة

العصر الأيوبى
(١١٧١ — ١٢٥٠ م)

موضع قلعة الجبل

تنهض قلعة القاهرة على أحد المرتفعات التى تتصل بجبل المقطم [1] فى موضع كانت تشغله قبة تسمى بقبة الهواء — قال عنها أبو عمرو الكندى فى كتاب أمراء مصر .

" اعلم أن أول ما عرف فى خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء بناها حاتم ابن هرثمة والى مصر فى سنة (١٩٥هـ — ٨١١م) ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء كان كثيرا ما يقيم فيها فإنها تشرف على قصره واعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن طولون ... ... ولما زالت دولة بنى طولون وخرب القصر والميدان كانت قبة الهواء مما خرب ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة وبنى فيها عدة مساجد " [2]

---

(١) أطلق على جبل المقطم طائفة من الأسماء . فكان الجزء الواقع منه شمالى القاهرة يسمى بالجبل الأحمر . والمرتفع الذى يبرز قليلا نحو الغرب يسمى بالجبل ، وعليه شيدت القلعة وعرفت باسم قلعة الجبل . وكان هناك شرف يطل على هذا المرتفع الذى قامت فوقه القلعة ويعرف هذا الشرف باسم " الرصد " مذ شيد الوزير الأفضل مرصدا فوقه . وكان أبوه قد ابتنى عليه مسجدا عرف باسم جامع أمير الجيوش أو جامع الجيوش .

(٢) الخطط المقريزية . جـ ٢ ص ٢٠٢

وذكر المقريزى أن " هـذه القلعة شيدت على قطعة من الجبل تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية والنيل الأعظم فى غربيها وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد . الى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول الملوك بديار مصر على يد بهاء الدين قراقوش الأسدى فى (٥٧٢ هـ — ١١٧٦) وصارت من بعده دار الملك بديار مصر [1] إلى أيام المغفور له الخديو اسماعيل " .

أسباب بناء القلعة

ولم تك فكرة بنائها إلا وليدة لتفحص بضعة من أسباب شتى اختمرت فى رأس صلاح الدين . فقد ارتأى بثاقب بصره — أثر ازالته قوائم الدولة الفاطمية بمصر — أن هناك عيونا تحوم حوله وتخون الفرص للانقضاض عليه، فهنا شيعة الخلفاء الفاطميين المنبثين فى جوانب الوادى، وهناك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، سلطان الشام .

فكان ينبغى أن يهيىء معقلا يدرأ عنه العواصف التى قد تهب ، ويحميه من النوازع التى قد تنفجر . وبخاصة لأن قصرى الفاطميين بمصر كان قد قسمهما بين أمرائه للاقامة فيها .

وقيل إن السبب الذى حدا به إلى اختيار مكان قلعة الجبل " أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك .

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٠١

وقد أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بنائها . كما بنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة (٥٧٢هـ—١١٧٦ م) . وقد اقتضاه ذلك هدم ما هناك من المساجد و إزالة القبور وتدمير الاهرامات الصغيرة التى كانت بالجيزة ليستخدم حجارتها فى عملية البناء .

وكانت أمنيته أن يجعل السور يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة . بيد أنه لم تمتد حياته فتوارى قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة ، بل دون أن يحظى بسكناها .

وهنا توقف العمل . إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل واستنابته فى مملكة مصر وجعله ولى عهده . فأتم بناء القلعة . وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك فى عام (٦٠٤هـ—١٢٠٧م) وما برح يقطنها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. فاستمرت من بعده دار مملكة مصر[١] .

صفة القلعة

وقلعة الجبل بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج و بدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع الأبراج .

ولعل المقريزى يقصد من عبارته الأخيرة أن فى قلعة ظاهرة غير عادية فى أسوار القلاع . فبدلا من أن يكون حولها سور تام بأبراجه و بدناته ترى أن سورها اعترضه قصور فتقضى على وحدته .

بدأ صلاح الدين فى تشييدها فى عام (٥٧٢ هـ — ١١٧٦م) ولم تتم وتتخذ مقرا إلا فى عهد ابن أخيه الملك الكامل (٦٠٤هـ — ١٢٠٧م) . فهو الذى شيد فيها أول ما بنى بها من قصور ، وهو الذى أقام أبراجها الرئيسية ، ونقل إليها مقر الحكم .

(١) الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٠٣

ومما يذكر أن صلاح الدين ترك كتابة تاريخية على باب المدرج فى غربى القلعة مؤرخة من سنة ٥٧٩ هجرية . ويشير هذا التاريخ إلى نهاية أعمال صلاح الدين فى القلعة . ولكن مما هو قمين بالتنويه أن هذه الأعمال لم تك خاتمة عمارتها فقد أضيفت اليها أجزاء كثيرة بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين الشمالى منها يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة وتفصله عن المربع الجنوبى حائط سميك وأبراج ضخمة . ويخرج المربع الجنوبى من الشمال مكونا ٨٠٠ زاوية قائمة . وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يك فى البداية جدران محصنة .

ثم هناك قصر السلطان وملحقاته وهى الأيوان والاسطبلات . وكان الايوان يطل على الجهة الشمالية ويفصله عن الحصن المربع الشمالى ميدان كبير كان يقف فيه الضباط والجنود فى انتظار وبدء الاستقبال . أما الاسطبلات فكانت فى أسفل القصر إلى الجنوب الغربى .

تحصين القاهرة

وإذا كان المقصود من بناء القلعة فى بداية الأمر هو تهيئة معقل لصلاح الدين خشية الفتن والاضطرابات التى يشعلها أنصار الفاطميين والسلطان نور الدين . فقد كان المرتجى من ورائها أصلا هو تحصين القاهرة فى وجه الغزاة والمعتدين . فمثل صلاح الدين — وهو المحارب الفذ والقائد الممتاز — طالع بعينه اليقظة مدى حاجة القاهرة ومصر وما يليها . بل واستحثه لتنفيذ هذه الرغبة الجياشة ما أبصره بمدن الشام الكبيرة . حيث شيدت لكل مدينة قلعة وسور .

فصمم الجندى الكبير على تشييد قلعة على المقطم تتصل بالسور . تكون بمثابة مركز هام لحشد الجنود وخزن العتاد .

---

١ — الخطط المقريزية — ج ٢ ص ٢٣٣

وقد تردد أن القلعة كانت محصنة ضد القاهرة أكثر منها ضد الأعداء من الجهات الأخرى . ولكن الواقع أن هذا القول لم يك صحيحا إلا بعد إنشائها بزمن طويل. أما فى البداية فإنها لم تك حصينة تماما إلا من النواحى الخارجية ، أما من ناحية القاهرة فقد قامت عمائر عديدة جعلت اتصال المدينة بالقلعة ميسورا للغاية .

وحين نراجع خطة تحصين القاهرة ، التى وضعت فى عهد صلاح الدين -- يلوح لنا أن قلعة الجبل جزء هام من أسوار المدينـــة وأبوابها . و يبتدئ للناظر طول أسوار القلعة البالغة حوالى ١٧٠٠ متر .

وهى فى الأصل على شكل مستطيل غير منتظم . والناحية الشمالية تظهر فى بروز واضح و يفصلها عن جبل المقطم خندق عميق . والناحية الغربية تتجه نحو القاهرة . وقبالة الزاوية الجنوبيـة الغربيـة المرتفع المسمى الصوة . وفى الناحية الجنوبية باب المدرج و يصعد اليـــه بسلالم محفورة فى الصخر . وفى الزاوية الجنوبية الشرقية باب القرافة .

و بهذا نكون قد أتينا على شكل القلعة فى عهد الأيوبيين الأوائل .

ونستطيع فى هذا السياق أن نقول — استنادا إلى شتى المصادر التاريخية الوثيقة — أن الجزء الأكبر من القلعة قد تم فى سنة(٥٧٩هـ—١١٨٣م). أما البئر فالمحتمل أنها تمت فى عام (٥٨٣ —١١٨٧م) وهو العام الذى أسر فى غضونه صلاح الدين كثيرا من الفرنجة استغلوا فى حفرها وبنائهـا . و يؤيدنا فى ذلك ما رواه أبو المحاسن نقلا عن ابن عبد الظاهر (وأعانه على عمله وحفر البئر التى بقلعة الجبل أسارى الفرنج وكانوا ألوفا) .

وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهرا . فإن الصخر محفور فى هذا القسم إلى عمق عظيم بحيث يضاعف ارتفاع الحائط .

وقد فصل صلاح الدين بين جبل المقطم و بين جزئه الواقعة عليه القلعة بهوة كبيرة منعت أى عدو يسيطر على جبل المقطم من الافادة على إشرافه على القلعة .

وللولوج القلعة بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج وبداخله يجلس والى القلعة ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب ، والباب الثانى باب القرافة وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت وبجانبها القبلى سوق للأكل ويتوصل من هذه الساحة الى دركاه كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وفى وسط الدركاه باب القلعة ويدخل منه فى دهليز فسيح يؤدى الى الجامع الذى تقام به الجمعة ويمشى من دهليز باب القلعة فى مداخل أبواب رحبة فسيحة فى صدرها الأيوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب وإقامة دار العدل . وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ويمر منها الى باب القصر الأبلق . ومن بدء باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الخدمة الدائمة بالقصر وكان بجانب هذه الرحبة محاذيا لباب القصر خزانة القصر[1] .

ولكن المؤرخ القلقشندى صاحب صبحى الأعشى، وقد فرغ من تأليف كتابه فى عام ٨١٤هـ، يختلف مع المقريزى فى عدد الأبواب . لقد أبان أنه كان للقلعة ثلاثة أبواب أحدها من جهة القرافة وجبل المقطم وهو أقلها استعمالا . والثانى باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة . كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، وهو يقابل الايوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لا يفتح إلا لدى وصول من يستحق الدخول أو الخروج منه ، فيفتح له ثم يغلق والثالث وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس يرقى اليه فى درجات متناسبة حتى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة تنتهى منها إلى دركاه يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى قبلى هذه الدركاه (دار النيابة) وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم ، وقاعة الصاحب وهى التى يجلس بها الوزير وكتاب الدولة (ديوان الانشاء) وهو الذى يجلس فيه كاتب السر ، وكذلك ديوان الجيش وسائر الدواوين السلطانية .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

ويتصدر هذه الدركاه باب يقال له باب القلعة[١] يدخل منه إلى دهليز فسيحة على يسرة الداخل منها باب يفضى إلى جامع الخطبة (قلاون) .

قصة البئر

هذه البئر من العجائب التى استنبطها بهاء الدين قراقوش ، وزير صلاح الدين وقائد جيشه ، تحدث عنها ابن عبد الظاهر فقال :

"هـذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل المـاء من نقالة فى وسطها وتدور أبقار فى وسطها تنقل المـاء من أسفلها ولها طريق إلى المـاء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء وقيل أن أرضها مسامته أرض بركة النيل وماؤها عذب . قيل إن هذه البئر لمـا نقرت جاء ماؤها حلوا فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها . وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتابه عجائب البنيان أنه ينزل إلى هذه البئر بنحو ثلثمائة درجة[٢]"

ويقال إن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بوساطة سرداب تنفذ منـه مياه النيل إلى القلعة وأنه حدث فى عصر الولاة العثمانيين أن فريقا من الثوار نفذوا إلى داخل القلعة عن طريق هذا السرداب .

فترة انتقال

وعقب وفاة صلاح الدين فى سنة (٥٨٩ هـ — ١١٩٣) كانت مصر فى تقسيم امبراطوريته من نصيب ابنه الملك العزيز الذى توفى فى ٥٩٥ هـ تاركا ابنا صغيرا جعلت الوصاية عليه لبهاء الدين قراقوش . بيد أن الملك الأفضل أخا الملك العزيز قبض على منصب الوصاية ولكن الملك العادل طرده منه وجعل مصر طعمة لابنه الملك الكامل وحكم الكامل مصر من سنة ٥٩٦ هـ الى سنة ٦١٥ هـ باسم أبيه الملك العادل ثم من سـنة ٦١٥ هـ الى ٦٣٥ هـ باسمه الشخصى .

---

١ — باب القلعة الاصلى كان موجودا حتى أيام السلطان بيبرس . أما الباب الحالى فيرجع الى عهد المغفور له محمد على باشا .

٢ — المقريزى — الخطط جـ٢ ص٢٣ .

القلعة فى عهد السلطان الكامل

(٦٠٤ — ٦٣٥ هـ = ١٢٠٧ — ١٢٣٨ م)

قال ابن عبد الظاهر[1] "والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها (القلعة) وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره فكملت فى سنة ٦٠٤ هـ ، وتحول إليها من دار الوزارة" .

وقد بنى الكامل فى القلعة إيوانا و بابا للقصور السلطانية سماه باب السر و بابا يصل لحصن القلعة أو الجزء الشمالى منها بالجزء الجنوبى وهو المدينة السلطانية ويسمى هذا الباب باب القلعة — وبنى كذلك الاصطبلات السلطانية و بعض الأبراج وأبراج الحمام وخزانة الكتب ولعله شيد كذلك مسجدا ومقرا للوزير يسمى قاعة الصاحب . وفى القرن الخامس عشر (عصر المقريزى) لم يكن باقيا من هذه المنشآت إلا الشىء القليل .

ومع أن السلطان الكامل هو الذى نقل لأول مرة مقر الحكم والإدارة الى القلعة فإن سيادة العنصر العسكرى فى البلاد لم تتم فى عهده و إنما فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى عظم نفوذ المماليك فى عهده وشيد لهم قلعة الروضة فسموا المماليك البحرية ولكنهم رجعوا الى قلعة الجبل عند ما استقرت فى أيديهم مقاليد الحكم . ولم تلبث العمائر أن قامت على أنقاض المقابر التى كانت تفصل هذه القلعة عن القاهرة حتى اتصلتا .

ومن منشآت السلطان الكامل فى القلعة — الاسطبل السلطانى الذى كان ملحقا بالقصر ولم يذكر أحد المؤرخين المسلمين تاريخ إنشائه ونراهم

---

١ — هو القاضى محيي الدين عبد الله عبد الظاهر ولد بالقاهرة وتوفى بها (١٢٢٣ — ١٢٩٢) اشتغل بكتابة التاريخ الى جانب أعمال ديوان الرسائل للملك الظاهر — كتابه الأشهر الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة لم يصل إلينا وقد اقتبس منه المقريزى فى مواضع كثيرة .

متفقين على ذكره بين منشآت عهد السلطان بيبرس . ونستغرب أن يفوت عليهم ذكره وعلى الأخص إذا لم ننس أن سلاطين آل أيوب كانوا من رجال الجهاد والحروب ولا يغيب عن نظائرهم أمر الخيول والعناية بها . ومع أن المقريزى لم يفته أن يذكر أن الملك الكامل تحول من دار الوزارة إلى القلعة ونقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة ..

ومن أعمال الكامل أيضا — الميدان السلطانى تحت القلعة . ومن منشئاته قاعة الصاحب — أى قاعة الوزير — وكان أول من شغلها صفى الدين بن شكر وزير الكامل .

وقد كان موجودا فى أيام السلطان بيبرس جامع تلقى فيه الخطبة ، ولا يبعد أن يكون الكامل هو المشيد له . وشيد مكان هذا الجامع جامع محمد بن قلاوون المعروف .

أبراج الحمام

ومنشئ أبراج الحمام — الملك الكامل — ولقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتابه " تمائم الحمايم " أن أبراج الحمام قد بلغ عدتها فى عام ٦٨٧ — ألف وتسعمائة طائر . وكان يستخدم الحمام فى نقل الرسائل . ومما يذكر فى هذا السياق أنه كانت هناك مراكز حمام فى سائر نواحى المملكة فى مصر والشام فيما بين أسوان والفرات .

خزانة الكتب

وهذا عمل آخر يعزى إلى الملك الكامل — خزانة الكتب — التى دمرها حريق عام (٦٩١ هـ — ١٢٩٢ م) وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل . ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد لما أمر الكامل بوضع اليد على داره ونقل مكتبته إلى القلعة . وقد كان ذلك فى يوم الاحد

الموافق لليوم الخامس من جمادى أول عام ٦٢٦ هـ . ثم نقلت المجلدات النفيسة فى اليوم السادس والعشرين — وكانت تتألف من ثمانية وستين الف مجلد . وبعد أيام حملت الخزائن الخشبية فى تسعة وأربعين حملا . وقيل أنه كان من جملة الكتب المستولى عليها — كتاب الاتابك والحضور لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلدا — وقد جمعها القاضى الفاضل من مكتبات الفاطميين .

ومن ثم يتسنى لنا أن نلخص أعمال الملك الكامل فى قلعة الجبل كما يأتى :

١ — الأيوان .

٢ — باب السر المؤدى إلى القصور السلطانية .

٣ — باب يصل بين قلعة الجبل (المدينة العسكرية) والقلعة (المدينة السلطانية) واسمه باب القلعة .

٤ — الاسطبلات السلطانية .

٥ — الأبراج .

٦ — أبراج الحمام .

٧ — خزانة الكتب .

٨ — قاعة الصاحب (الوزير) .

٩ — الجامع .

ونلاحظ أن عمدتنا فى تاريخ القاهرة — المقريزى — لم يدون آثار الكامل فى الخطط نخات منها . ولم يرجع إلى مصنفات السابقين من المؤرخين وينقلها عنهم . فالمقريزى كما نعلم أجاد وصف القاهرة التى عاش فيها وسنرى فى الفصول التالية كيف انتفعنا بالخطط المقريزية .

القاعة الصالحية

عقب وفاة الملك الكامل (١٢٣٨م) الى انتهاء حكم الإيوبيين فى مصر (١٢٥٠ م) لم يشيد أحد من سلاطين هذه الأسرة فى القلعة ما يستاهل التنويه . ونكتفى بذكر القاعة الصالحيــة التى أمر بانشائها الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩م) وظلت سكن الملوك إلى أن احترقت فى ٦ ذى الحجة عام (٦٨٤ هـ) .

و إذا نحن اعتبرنا الملك المعز نجم الدين أيبك — من أسرة الايوبيين لأنه كان الزوج الثانى للملكة شجرة الدر اوجدناه بعـد أن استقر بالقلعة قد أهمل إيوان الكامل واتخذ المدرسة الصالحية مقرا للحكم والنظر فى الشكاوى[1] وقد تنسب اليه قاعة الأعمدة .

موجز أعمال العصر الأيوبى فى القلعة

يعتبر كتاب الأستاذ كريزويل " التاريخ المعمارى للقلعة " الذى نشره معهد الآثار الفرنسية بالقاهرة أظهر المراجع العمارية وأوثقها فى تاريخ عمارة القلعة وننقل عنه ملخصا موجزا لأسوار القلعة وأبراجها وأبوابها :

(أولا) يعـزى الى صلاح الدين الأيوبى بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية . ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف و يقف لدى المكان الذى يشغله الآن المتحف الحربى . و ينسب إليه أيضا البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافه و باب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمـتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخلفى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

(١) راجع كتاب النجوم والسلوك لابن تغرى بردى .

وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين بنى هذا السور كاملا وقويا على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به . إذ أنه استدعى لفلسطين فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ فى ظروف عصيبة خلال الحروب الصليبية . فترك القاهرة وسورها وخاض غمار حروب طاحنة واشترك فى وقائع متوالية خرج منها منصورا إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس فى شعبان سنة ٨٥٣ هـ — أكتوبر ١١٨٧ م .

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلا ووقفت الحروب مؤقتا فانتهز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وماله من النفوذ وبما تحت تصرفه من موارد الممالك الأيوبية أن يعيد تحصين المواقع الحربية الهامة فى دولته الوسيعة .

وما تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى والقاهرة وأطلال حصون جبل طابور شاهدة على جهوده الكبيرة ونشاطه فى هذا السبيل .

(ثانيا) وينسب الى الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلى وهى برج صفطه وبرج قرقيلان وبرج العلوة — والزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته . والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور . وقد تمت أعمال العادل سنة (٦٠٤ هـ — ١٢٠٦/١٢٠٧ م) .

وقد ذكر عماد الدين كاتب السر الذى كان موضع ثقة صلاح الدين والذى كانت جميع الوثائق فى متناول يده أن " محيط القاعة كان ٣٢١٠ أزرعة هاشمية (١) " .

---

١ — الذراع الهاشمى يساوى ٦و٥٦ سنتيمترا .

القلعة فى عهد السلاطين البحريين

(١٢٥٠ – ١٣٨٢ م)

الظاهر بيبرس

نصل الى تاريخ القلعة فى ظل السلاطين المعروفين بالمماليك البحرية ، فلا نجد للثلاثة السلاطين الأول منهم أعمالا تستحق الذكر — لأنهم لم يكونوا من طراز رابعهم ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، إلا اذا استثنينا قطز ، الجندى المجاهد ، هازم المغول فى معركة عين جالوت والذى قتله غيلة بيبرس ليظفر بملك مصر .

ولا ندرى كيف اتسع وقت بيبرس ليحكم ملكه الواسع ، ويدير شئون دولته ، ويقود الجيوش الظافرة ضد المغول والصليبيين والروم فى إرجاء آسيا الصغرى والشام وأعالى الفرات والنوبة ....

وان دل هـذا على شىء فهو على أنه أحد أفراد ذلك الطراز النادر من سلاطين مصر ، بل ملوك العالم أجمع ...

فلنصغ الى أقوال أبى المحاسن فى مؤلفه " النجوم الزاهرة " ملخصا أعمال بيبرس فى القلعة [١] :

" عمر بقلعة الجبل دار الذهب وبرحبة الجبارج [٢] قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على

(١) أبو المحاسن (النجوم الزاهرة) جـ ٧ ص ١٩٠

(٢) الجبارج — الجبرج بالضم من طير الماء جمعه جبارج وجباريج .

هيئتهم — وعمر بالقلعة أيضا طبقتين مطليتين على رحبة الجامع [١] — وإنشأ برج الزاوية [٢] المجاورة لباب القاعة [٣] وأخرج منه رواشن — وبنى عليه قبة وزخرف سقفها — وأنشأ جواره طباقا لمماليكه أيضا . وأنشأ تجاه برجيه بباب القلعة دارا كبيرة لولده الملك السعيد . وكان فى موضعها حفير فعقد عليه ستة عشر عقدا . لأنه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية .

ومثل هذه المنشآت ، سنأتى على وصف كل منها على حدة ، كما تحدث عنها ابن عبد الظاهر الذى نقل عنه — فيما بعد — المقريزى بكثير من الحذر والعناية والدقة — وكما أعاد النظر فيها المؤرخ محمد رمزى بك .

فما هى دار الذهب هذه ؟ وهل لها علاقة بالقلعة الظاهرية والدار الجديدة اللتين ورد ذكرهما فى كتاب ابن عبد الظاهر سكرتير بيبرس .

يقول هذا المؤرخ أنه فى عام ٦٦٤ هـ نجزت عمارة القلعة الظاهرية المجاورة لباب سر قلعة الجبل المحروسة ، المتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الفخرى — وهى قاعة عظيمة ، قد افتن فى عمارتها وزخرفتها ، حتى كادت تبلغ الغاية أو النهاية ولما نجزت جلس بها السلطان

---

(١) الجامع الذى كان موجودا بالقلعة فى ذاك العهد وقد هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله فى جامعه الذى أنشأه عام ٧١٨ هـ — وهذا الجامع لا يزال موجودا

(٢) هذا البرج لا يزال موجودا فى الزاوية البحرية الغربية من السور القديم البحرى للقلعة ولما جدد محمد على باشا الكبير سورها الحالى أصبح البرج فى داخله و يعلوه الآن الجناح الغربى للتحف الحربى .

(٣) المقصود هنا باب المدرج الذى لا يزال موجودا ولكن بطل استعماله وسد الطريق الذى كان يوصل بينه و بين حوش القلعة من جراء وجود الباب الجديد الذى أنشأه محمد على الكبير فى سنة ١٢٤٢ بجوار الباب المدرج .

ومد سماطا ، وخلع على عز الدين الفخرى مشيدها . وللصاحب محى الدين (ابن عبد الظاهر) قصيدة فى هذه المناسبة [١]

وذكر المقريزى عن الدار الجديدة — أن الملك الظاهر بيبرس عمرها فى عام (٦٦٤هـ — ١٢٦٦ م) عند باب سر القلعة وعمل بها فى جمادى الأول منها دعوة للأمراء عند فراغها [٢]

ويرى كازانوفا أن دار الذهب والقاعة الظاهرية والدار الجديدة أسماء على مسمى واحد . ونحن من ناحيتنا نتفق معه على هذه النتيجة . فضلا عن أنه لم يرد بالتفصيل شئ عن كل واحدة منها فى كتب المؤرخين المعاصرين.

وهناك برج أمر بتشييده الظاهر فى الزاوية المجاورة لباب القلعة .

وهذه القلعة التى عرف بها الباب الذى تسمى بها. كانت موجودة وشيدها الظاهر ثم هدمها الملك المنصـور قلاوون ثم جدد باب القلعة على ما كان عليه فى أيام المقريزى .

وننتقل بعد ذلك الى دار العدل القديمة التى بناها بيبرس ومكانها اليوم الى يمين الداخل الى القلعة ويشغلها ميدان سارية العلم الذى تفضل برفعه مولانا الملك فاروق يوم الجمعة ١٢ رمضان ١٣٦٥هـ (٩ أغسطس ١٩٤٦) بمناسبة جلاء الانجليز عن القلعة .

وقد بنيت هذه الدار (دار العدل) فى سنة ٦٦١ هـ ، وصار السلطان يجلس بها لعرض العساكر فى يومى الأثنين والخميس من كل أسبوع . وقد بدأ بالحضور فى سنة (٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ م) فوقف اليه ناصر الدين محمد بن أبى نصر وشكا انه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك وهو بايدى المقطعين واخرج كتابا مثبتا واخرج من ديوان الجيش مايشهد بأن البستان ليس من

---

(١) Bibl, Nat, Paris. Ms. 802

(٢) الخطط المقريزية — ص ٣٤٩ حـ

حقوق الديوان . فامر برده عليه فتسلمه . واحضرت مرافعته فى ورقة مختومة رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة تضمنت انه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته فانه لم يجعل للحنابلة مدرسا فى المدرسة التى انشأها بخط بن القصرين ولم يول قاضيا حنبليا وذكر عنه أمورا فادحة فبعث السلطان الورقة الى الشيخ فحضر اليه وحلف أنه ما جرى منه شىء وأن هذا الخادم طرده فاختلق على ما قال . فقبل السلطان عذره وقال ولو شتمتنى أنت فى حل وأمر بضرب الخادم مائة عصا

وغلت الأسعار بمصر حتى بلغ أردب القمح نحو مائة درهم وعدم الخبز فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ونزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها وجلس بدار العدل هذه ونظر فى أمر السعر وأبطل التسعير وكتب مرسوما الى الأمراء ببيع خمسمائة أردب فى كل يوم ما بين مائتين الى ما دونهما . وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم . وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة وكتبوا اسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة وبعث الى كل جهة من جهات القاهرة ومصر وضواحيها حاجبا لكتابة أسماء الفقراء وقال والله لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرقتها ولما انتهى احضار الفقراء أخذ منهم لنفسه الوفا وجعل باسم ابنه الملك السعيد الوفا وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء بعدة رجاله .

وما برحت دار العدالة باقية الى أن استحدث السلطان الملك المنصور قلاون الايوان فهجرت . وظلت مهجورة الى أن هدمها قلاون فى عام ٧٢٢هـ (١٣٢٢ م) وأقام على بقاياها الطبلخانة [1]

وقد لعبت القلعة على عهد بيبرس دورا مشهودا . وبعبارة أوضح كانت مسرحا لأحداث كبرى فى التاريخ المصرى . تأتى فى طليعتها التجاء الأمير أبو القاسم أحمد الى مصر بعد أن استحوذ التتار على بغداد — فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر بيبرس — وفد عليه مع جماعة من بنى مهارش —

(١) الخطط المقريزية جـ٣ ص ٣٣٥

فوصلوا الى القاهرة فى الثامن من رجب عام ٦٥٩هـ . وهنا ركب السلطان بيبرس للقائه وبصحبته الوزير بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون ، فضلا عن اليهود بالتوراة ، والنصارى بالانجيل ، فى يوم الخميس — فدخل من باب النصر ، وشق القاهرة . وكان لدخوله يوم مشهود .

وحين حل يوم الاثنين الثالث عشر من رجب ، جلس السلطان الملك الظاهر والخليفة بالايوان وأعيان الدولة بأجمعهم ، وقرئ نسب الخليفة ، وبويع بالخلافة ، بعد أن انقضت ثلاث سنوات ونصف السنة والناس بلاخليفة .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من رجب ، خرج الخليفة المستنصر بالله عليه ثياب سود الى الجامع بالقلعة ، وخطب خطبة بليغة ذكر فيها شرف بنى العباس ثم صلى على النبى (صلعم) .

وفى مستهل شعبان من العام المذكور ، تقدم الخليفة بتفصيل خلعة سوداء ، وبعمل طوق ذهب وقيد ذهب . وبكتابة تقليد بالسلطنة للملك الظاهر بيبرس . ونصب خيمة ظاهر القلعه . فلما كان يوم الاثنين رابعه ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء ووجوه الدولة الى الخيمة ظاهر القاهرة بقبة النصر [1] .

فألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة بيده وطوقه وقيده . وصعد فخر الدين ابراهيم بن لقمان رئيس الكتّاب منبرا نصب له ، فقرأ التقليد وهو من إنشائه وخطه . ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق والقيد ودخل من باب النصر وقد زينت القاهرة له . وحمل الصاحب بهاء الدين التقليد على رأسه راكبا والأمراء يمشون بين يديه . فكان يوما يقصر اللسان عن وصفه .

---

(١) كانت هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم وهى خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر تجاه قبة الأمير يونس الدوادار الظاهرى بآخر ميدان القبق من بحريه — جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد اندثرت هذه القبة .

وقد أعد بيبرس للخليفة جيشا ليستعيد به بغداد من قبضة التتار ... بيد أن الحملة قد باءت بالفشل. وحدث أن تولى الخلافة من بعده أحد أقاربه باسم الحاكم بأمر الله وخرج السلطان لاستقباله (٢٧ ربيع الأول عام ٦٦٠هـ) وهيأ له البرج الكبير (المجاور لباب القرافة) بداخل القلعة لإقامته وسكنه. ثم تحول الخلفاء فيما بعد إلى قلعة الكبش حتى عام ٩٢١هـ لما تنازل آخر الخلفاء عن سلطتهم الروحية إلى السلطان سليم الأول العثمانى .

باب الدرفيل

وقبل ختام الحديث عن القلعة ، فى عهد بيبرس ، نذكر شيئا عن باب سارية أو المدرج الذى أصبح على أيامه يتسمى باسم باب الدرفيل . وهو اسم لأحد قادة جيش بيبرس — وهو الأمير حسام الدين لاشين الايدمرى وكان يشغل منصب الدوادار وقد وافته المنية فى عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣/٧٤م)

وهناك رأى آخر يقول بأن باب الدرفيل هو باب آخر لا يتصل بباب سارية أو المدرج ...

وفى الفترة القصيرة التى تربع فيها على العرش — السلطان بركة خان بيبرس — يصادفنا ذكر برج الرفرف و إن كان المقريزى يعزو بناءه إلى الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

السلطان قلاوون

(٦٧٩ هـ — ١٢٧٩ م)

كان أول مبنى شيده قلاوون فى القلعة — القبة — أقامها فى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) ونرى أن ننقل عن ابن عبد الظاهر ما جاء بذكرها فى مخطوطه

" كان فى غيبة (السلطان قلاوون)[١] رسم ببناء قبة فى الرحبة الحمراء بالقلعة المحروسة بمباشرة الأمير علم الدين المنصورى فجاءت من عجائب الأبنية التى ماعمر مثلها ملك فى مملكة من الممالك . ومن عارض فى هذا القول فليقل فلان فى المكان الفلانى . فنسلم له ذلك . والذى بهذه القبة خاصة من العمد الكبار والصغار الملونة والمذهبة أربعة وتسعون عمودا خارجا من الرواقات والذى ألصق بها من الذهب ألفان وثلث مائة دست ذهبا مصريا . وأما من الرخام فما لا تحصى قيمته ولا تحصى. وفى جدران رواقاتها صفة قلاع مولانا السلطان قلعة قلعة وحصنا حصنا بحارها وأنهارها وسهولها وجبالها وكتب على لوح رخام منها أن الشروع فيها كان فى مستهل شعبان من هذه السنة .

ومما نظمه الشاعر فيها :

شيدت للملك كل قصر ... يربى اعتلاء على البرابى
فصرح بلقيس فى انقضاض ... وصرح هامان فى انقضاب
وقصر غمدان فى انقلاء ... وشعب بوان فى انقلاب
يا حسنها قبة تعالت ... حتى تناهت إلى السحاب

ولما وصل مولانا السلطان جلس بهذه القبة فاستحل كمالها . وحضر صاحب حماة وعمه والأمراء جميعهم بها .

[١] من رجب الى شوال عام ٦٨٥ هـ

وقد أورد المقريزى فى الخطط أن قبة قلاوون هذه هيئت على أنقاض قبة بيبرس — وقد هدمت الأولى فى يوم الأحد ١٠ رجب عام ٦٨٥ ، وانتهى العمل فى الثانية فى شوال من العام المذكور . ولسنا ندرى أين كان موضع هذه القبة بالضبط .

والى قلاوون يعزى بناء "دار النيابة" فى عام ٦٨٧ — ١٢٨٨ م . وقد قطنها الأمير حسام الدين طرنسطاى ومن بعده من نواب السلطنة . ومما يذكر أن النواب كانوا يجلسون بشباكها .

وقــــد أنشأ قلاوون أشتاتا من الأبنية لسكن مماليكه بالقلعة ، كما هيأ برجا على مقربة من باب السر .

وقبل أن نخلف منشآت قلاوون ينبغى أن نشير الى الحريق الهائل الذى شب فى عام ٦٨٤ ﻫ (١٢٨٥م) ودمر قاعة الصالحية .

وفى أيام خلفه ابنه الخليل (٦٨٩ﻫ — ١٢٩٠م) اندلعت حريق أخرى أتى على وصفها ابن عبد الظاهر سكرتير بيبرس وقلاون وخليل فيما يلى :

"فى ليلة الجمعة سابع عشر صفر وقعت نار بالآثار الشريفة السلطانية قرب الخزائن المعمورة وخزانة الكتب وغير ذلك فقوى فعلها واستطار لهبها وارتفع وقدها . وعلت حتى كادت تذهب بالأبصار وحضر مولانا السلطان لذلك معاجلا وفتحت الأبواب وحضرت المماليك السلطانية من الأمراء كلهم وغيرهم واقتحموا تلك النيران بنفوسهم ونقلت المياه من دخاير الصهاريج وفتحت الأبواب . فقالت فقالت سعادة مولانا الالاهية وبركاته الخليلية يا نار كونى بردا وسلاما فاوقتها صارت كذلك . ودفع الله من المخاوف العظيم ما هنالك .

وبرج الرفرف من تعمير الملك الخليل — يقول المقريزى عنه أنه قد جعله عاليا يشرف على الجيزة كلها وبيضه وصور فيه أمراء الدولة وخواصها . وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها . وكان مجلسا يجلس فيه السلطان واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة (٧١٢ﻫ — ١٣١٢م).

١ — Ms. de Munich. No 405 fo 60 .

الناصر محمد بن قلاوون

السلطنة الأولى (٦٩٣ هـ — ١٢٩٣ م) .

السلطنة الثانية (٦٩٨ هـ — ١٢٩٨ م) .

السلطنة الثالثة (٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م) .

هو فى الحق — بناء دولة المماليك البحرية فى الامبراطورية المصرية . تنطق أعماله بقوة شخصيته فى قيادة الجيوش ، وإدارة الحكومة ، وتنظيم الملك ، خلع من العرش مرتين ثم عاد اليه مرة ثالثة فحكم من عام ٧٠٩ الى عام ٧٤٦ وجلس أبناؤه العديدون على عرش مصر ، كل فى دوره ، وكان قوامهم تسعة ، تتابعوا على حكم وادى النيل من عام ٧٤١ هـ إلى عام ٧٦٢ هـ

ويعتبر الناصر مكملا لأعمال صلاح الدين وبيبرس وقلاوون . ادخل الرعب والفزع إلى جيوش الصليبين والمغول . وبالرغم من اشتغاله طوال حياته بالفتوح المستمرة كان معمرا من الطراز الأول . خلد اسمه بما شيده من القناطر ، وحفره من القنوات ، وابتناه من القصور والمساجد. ولم ينافسه من ملوك المماليك منافس .

نجده قد عمر خارج سور القاهرة الفاطمى خمسة أحياء مستحدثة ، فازدهرت عاصمة ملكه ، وامتدت مساحتها .

وفى عصره انتعش الفن الاسلامى ، وازدهرت العمائر ، وانتشر فى مصر صنع الطرائف . بل ويلاحظ هواة الفنون الاسلامية أن غالبية معروضات المتاحف الفنية فى أوربا وأميركا والشرق من مخلفات عصر الناصر محمد [١] وأمراء دولته وكبار رجالاته .

---

(١) الخطط — جـ ٣ ص ٣٤٥ — ٣٤٩ (طبعة النيل)

(١) S.L. Poole Art of the Saracens in Egypt, p. 189-192

ولا مرية فى أن العصر الذهبى الثانى للقلعة هو عصر السلطان الناصر . أما أول تلك العصور فهو أيام بيبرس الكبير ، هازم الصليبيين والتتار .

أجل . هذا هو ثانيهما . وأما ثالثهما فهو — بغير نزاع — عهد محمد على الكبير . كما أن مجدد كل العصور والامجاد ، فخر المصريين والشرقيين فاروق الأول — حفظه الله .

ومنشآت الناصر محمد فى القلعة ، تناولها المؤرخ المستشرق كازانوفا فى " تاريخ القلعة " بالتقسيم إلى ثلاثة أقسام .

أولها — المنشآت التى مازالت باقية إلى اليوم .

ثانيها — المنشآت التى كانت باقية إلى أيام الحملة الفرنسية ووصفت فى ذياك العهد .

ثالثها — المنشآت التى تأتى وصفها فى كتب المؤرخين شهاب الدين والقلقشندى والمقريزى .

ومنشآت القسم الأول هى :

(١) الجـامع :

بدأ العمل فيه عام ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) فى موضع كان يشغله جامع اخر فهدمه السلطان كما هدم المطبخ والحوائجخانة والفراشخانة . ثم تراءى له توسيعه فى عام ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ولما انتهى العمل جلس فيه السلطان واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر وجل القراء والخطباء وعرضوا بين يديه وأنصت إلى اذانهم وخطابتهم وقراءتهم . فرتب عشرين منهم. وجعل عليه انفاقا تكفيه وتفيض .

وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، كانت أرضيته مفروشة بالرخام ، وسقوفه مبطنة بالذهب . وبصدره قبة عالية يليها مقصورة

مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ويحف صحنه رواقات من جهاته[1] وكانت بالصحن ميضاه .

وقد عنى به وبزخارفه إذ كان بمثابة مسجد القصر الخاص ، وله بابان أحدهما بالواجهة البحرية المواجهة لباب القاعة على يساره منارة ، والآخر بالواجهة الغربية وعلى يمينه منارة أخرى .

وأكبر أروقة الجامع (ايواناته) الرواق الشرقى إذ يتكون من أربعة أروقة تتوسطها قبة كبيرة حمات على عشرة أعمدة ضخمة من الجرانيت ولهذه القبة طراز خشبى به آيات قرآنية يعلوه مقرنص خشبى تعلوه قاعدة أخرى بها شبابيك جصية . وقد هدمت هذه القبة ثم جددها السلطان قايتباى سنة ٨٩٣ ﻫ (١٤٨٧ م) كما عمل للجامع منبرا رخاميا ثم هدمت هذه القبة أيضا وجددتها أخيرا إدارة حفظ الآثار العربية[2]

وهذا الجامع وإن كانت تسوده البساطة من الخارج فلا مقرنصات ولا زخارف ولا كتابات إلا أنه من الداخل كان غنيا بشتى الصناعات كما تدل على ذلك بقاياه — فقد كسيت الجدران إلى ارتفاع نحو خمسة أمتار بوزرة رخامية دقيقة طعمت بالصدف . وكان محرابه مكسوا بالرخام المحفور به زخارف دقيقة .

ولهذا الجامع منارتان حجريتان : الأولى على يسار الباب البحرى ، والثانية على يمين الباب الغربى .

وقد قرأ كازانوفا على لوحة رخامية مستطيلة كانت فوق باب الجامع البحرى السطرين الآتيين :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا الجامع المبارك
السعيد سيدنا ومولانا السلطان الملك ال . . . .

---

١ — الخطط المقريزية جـ ٣ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ طبعة النيل

٢ — حسن عبد الوهاب ، مجلة العمارة ، الجزءان ٧ و ٨ عام ١٩٤١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

كما قرأ على لوحة الباب الغربى :

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا الجامع المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد قلاوون الصالحى فى شهور سنة ثمانية عشرة وسبع مائة من الهجرة النبوية .

كما قرأ طائفة من الآيات القرآنية على الطراز الداخلى تحت القبة . . وعلى المئذنة كتابة تحتوى على آيات الكرسى .

(ب) البرج[1] :

على أحد أبراج القلعة ، وعلى ارتفاع كبير من الجـدار ، تقرأ كتابة واضحة نصها كما يلى ،

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا السلطان المالك الملك الناصر الغازى فى سبيل الله الحاج الى بيت الله وقبر رسول الله ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور بدؤه فى جمادى الأولى .

والفراغ . . . ثلاث[2]

ويرجع المؤرخ كازانوفا أن يكون بناء هذا البرج قد تم حوالى ٧١٣ هـ (٣١٣ م) وخصوصا اذا كان هذا البرج هو الذى عناه لما قال أن محمدا ابن قلاوون هدم الرفرف الذى شهده أخوه خليل عام ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) لكى يجدد بناءه ، وعمل بجواره برجا على مقربة من الاصطبل نقل اليه المماليك .

وهذا الترجيح يكون أقرب الى الصواب اذا علمنا أن أول شهر جمادى أول فى النص المذكور يوافق أول أيام عام ٧١٣ . وذا أضفنا الى هـذا

---

(١) راجع خارطة القاهرة المرسومة عام ١٧٩٨ (الحملة الفرنسية بالقرب من الرقم ٨٤

(٢) Corpus Inscri-pt Arab. 1er fasc. p. 88

يلاحظ أن فان برشم قرأ كلمة ناصر، حصن

أنه فيما بين عامى ٧١٢ و ٧١٥ هـ تم لابن قلاون تشييد أكثر عمائر القلعة أو تجديدها كالرفرف والايوان والميدان ومجارى المياه وفى ذلك يقول المقريزى فى كتاب السلوك لدى الحديث عن أعمال السلطان فى هذا التاريخ

"وأكثر من العمائر وولى اقسنقر أمير أخور شاد العمائر وأحضر العتالين من سائر البلاد الشامية وأفرد للعمائر ديوان بلغ مصروفه فى كل يوم اثنى عشر الف درهم الى ثمانية آلاف ."

(ج) الكتابة المنقوشة على باب السارية

القسم الثانى من عمائر ابن قلاون

(ا) الايوان

لاريب أن الايوان كان أظهر عمائر محمد بن قلاون فى القلعة — وقد شيد محمد على باشا على أنقاضه جامعه الكبير [1] . وعرف بايوان يوسف مدة طويلة ، ولذلك نسبه البعض الى صلاح الدين خطأ . وخير وصف لهذا الايوان ورد فى الخطط كما يلى [2] .

"الايوان المعروف بدار العدل . أنشأه السلطان الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى النجمى ثم بدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل واستمر جلوس نائب دار العدل به فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك أمر بهدم هذا الايوان فهدم وأعاد بناءه على ما هو عليه الآن وزاد فيه وأنشأ به قبة جليلة وأقام به عمدا عظيمة نقلها اليه من بلاد

---

(١) اما الرحبة التى كانت قبالة الايوان فكانها الحوش الواقع تجاه الواجهة البحرية الشرقية لجامع محمد على

(٢) الخطط المقريزية ، جـ ٢ ص ٢٩٦

الصعيد ورخمه ونصب فى صـدره سرير الملك وعمله من العاج والأبنوس ورفع سمك هـذا الايوان وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة وجعل بالايوان باب سر من داخل القصر وعمل باب الايوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل اليه وله باب يغلق فاذا أراد أن يجلس فتحه حتى ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الايوان وقرر للجلوس فيه بنفسـه يوم الاثنين و يوم الخميس فاستمر الأمر على ذلك وكان أولا دون ما هو اليوم فوسع فى قبته وزاد فى ارتفاعه وجعـل قدامه دركا كبيرة فجاء من أعظم المبانى الملوكية . وأول ما جلس فيه عند انتهـاء عمل الروك بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد فلما تكامل حضورهم جلس وعين أن يحضر فى كل يوم مقدما ألوف بمضافيها مكان المقدم يقف بمضافيه و يستدعى من تقدمه على قدر منازلهم فيتقدم الجندى الى السلطان فيسأله ابن من ومملوك من ثم يعطيه مثالا واستمر على ذلك من مستهل المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة الى مستهل صفر منها وما برح بعـد ذلك واظب على الجلوس به فى يومى الاثنين والخميس وعنده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاص وكاتب الدست وتقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم فلما مات الملك الناصر اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده واستمروا على الجلوس بالايوان الى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق فالتزم ذلك أيضا الا أنه صار يجلس فيه اذا طلعت الشمس جلوسا يسيرا يقرأ عليه فيه بعض قصص .. وكان موضع جلوس السلطان فى الايوان للنظر فى المظالم فأعرض الملك الظاهر عن ذلك وجعـل لنفسـه يومين يجلس فيهما بالاصطبل السلطانى للحكم بين النـاس وصار الايوان فى ايام الظاهر برقوق وأيام ابنـه الملك الناصر فرج وأيام الملك المؤيد شيخ ألمحمودى من بقايا الرسوم الملوكية لا غير .

وفى مخطوطه ميونيخ رقم ٤٠٠ ص ٢٩٢ ، نقـل كازانوفا فى كتابه النفيس عن تاريخ القاهـرة أن مؤرخا مجهولا قال أنه فى ٧ جمادى ثان

---

(١) اقرأ فى خاتمة هذا الفصل — ذكر النظر فى المظالم — وخدمة الايوان .

عام ٧٣٣ هـ شرعوا فى هدم القبة بالايوان بالقلعة وعمروا القبة والايوان على ما هو عليه اليـوم ، وفرغوا فى ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وجلس السلطان على الكرسى فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر المذكور .

ومن الصعوبة بمكان ، أن نقفو أثر تاريخ هـذا الايوان ، كما جاء فى كتب المؤرخين المسلمين أو الرحالة الغربيين . بيد أننا سنورد نتفا ممـا ذكره هؤلاء وهؤلاء ...

ذكر ابن أياس فى كتابه تاريخ مصر ، أنه فى يوم السبت سادس عشر محـرم عام ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) سقطت القبـة العظيمة التى كانت على الايوان ، سقطت باكر النهار وهذه القبة من انشاء محمد بن قلاوون ، فلما سقطت قال الناس بزوال ملك الأمراء عن قريب ، وهذه القبة لهـا نحو مائتين سنة من حين عمرت وكانت من خشب وفوقها رصاص ، وكانت مغلفة بقيشانى أخضر — ولم يعمر فى مصر أكبر منها وكانت من نوادر الزمان " .

وجاء ذكر الايوان فى كتاب رحلة M. Monconys [1] الذى زار مصر وشاهد الايوان الكبير فى فبراير عام ١٦٤٧ م (١٠٥٦ هـ) ووصف أيضا الرحالة مايبه[2] وريتشارد بوكوك (١٧٤٩ م) ونيبوهر الدنماركى (١٧٧٤) ، وأخيرا كتاب الموسوعة الفرنسية وصف مصر

(ب) القصر الأبلق :

نقرأ وصف هذا القصر فى الخطط [3] قبل أندثاره — وكان قائمـا فى الجهة الغربيـة من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة الى الساحة التى بها جامع محمد على ، وكان يشغله الى أوائل

1— Journal des voyages de M. Monconys. Lyon 1676 1er partie. p. 168

2— Maillet, Description de l'Egypte 1735 p. 191

٣ — الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٠٩

عام ١٩٤٦ السجن الحربى للجيش البريطانى ومساكن المساجين ويتبعه حديقة تطل على القاهرة هى اليوم ساحة العلم التى رفع العلم المصرى عليها الفاروق المعظم يوم ٩ أغسطس ١٩٤٦

ولنعد الى الخطط لنقرأ ما كتبه المقريزى عن هذا القصر الذى قيل أنه انتهى بناؤه فى مدة عشرة أشهر وقد وصف فى البيتين الآتيين :

قصر تحليه تحية وسلام خلقت عليه شبابها الأيام

قرت به عين المليك وغردت بالبشر فيه بلابل وحمام

كان يشرف هذا القصر على الاسطبل الذى أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣) وانتهت عمارته فى السنة التالية وأنشأ بجواره جنينة ولما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء وأهل الدولة ثم أفيضت عليهم الخلع وحمل الى كل أمير من امراء المئين ومقدمى الألوف ألف دينار ولكل من مقدمى الحلقة خمسمائة درهم ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة منها خمسمائة دينار فبلغت النفقة على هذا القصر خمسمائة الف الف درهم وخمسمائة الف درهم وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ماعدا يومى الاثنين والخميس فانه يجلس للخدمة بدار العدل وكان يخرج الى هذا القصر من القصور الجوانية فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر ايوان هذا القصر المطل على الاسطبل وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف هذا ما تقدم خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان فانه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار الا من دعته الحاجة الى حضوره ولا يزال السلطان جالسا الى الثالثة من النهار فيقوم ويدخل الى قصور الجوانية ثم الى دار حريمه ونسائه ثم يخرج فى أخريات النهار من قصوره الجوانية للنظر فى مصالح ملكه ويعبر اليه الى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به على ماتدعو الحاجة اليه ويقال لها خدمة القصر وهذا القصر تجاه بابه رحبة

يسلك اليها من الرحبة التى تجاه الايوان فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواصى الأمراء قبل دخولهم الى خدمة القصر ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام قد فرش فوقه أنواع البسط الى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بايوانين أعظمها الشمالى يطل منه على الاصطبلات السلطانية ويمتد النظر الى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها الى نحو النيل وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه الى الإيوان الكبير أيام المواكب ويدخل من هذا القصر الى ثلاثة قصور جوانيه . وكان بهذا القصر الابلق رسوم وعوائد تغير كثيرا منها وبقيت بقايا من شعار المملكة ورسوم السلطنة (إلى أيام المقريزى) .

الأسمطة السلطانية [1]

كانت العادة ان يمد بالقصر فى طرفى النهار من كل يوم أسمطه جليلة لعامة الأمراء خلا البرانيين وقليل ماهم فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ثم ثان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ثم ثالث بعده يسمى الطارى ومنه مأكول السلطان وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان الأول والثانى المسمى بالخاص ، وفى كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها ويفرق نوالات ثم يسقى بعدها الاقسماء المعمولة من السكر والأداوية المطيبة بماء الورد المبردة وكانت العادة أن يبيت فى كل ليلة بالقرب من السلطان أطباق منها أنواع من المطجنات والبوارد والفطر والقشطه والجبن المقلى والموز وأطباق فيها من الأقسماء والماء البارد برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم ويكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل

(١) الخطط المقريزية — ج٣ — ص ٣٤ — ٣٤٢

فاذا انتهت نوبه نبهت التى تليها ثم ذهنت هى فنامت الى الصباح . وبلغ مصروف السماط فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم منها نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة . وكان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم سوى الأوز والدجاج وكان راتب المؤيد شيخ فى كل يوم لسماطه وداره ثمانمائة رطل من اللحم فلما كان من المحرم سنة ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م) سأل الملك الاشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كل يوم بكرة وعشيا فقيل له ستمائة رطل فى الوجبتين فأمر أن يطبخ بين يديه لأنه بلغه أنه يؤخذ مما ذكر لشاد الشربخانة ونحوه مائة وعشرون رطلا بجعل راتب اللحم فى كل يوم بزيادة أيام الخدمة ونقصان أيام عدم الخدمة خمسمائة رطل وستة أرطال من وجبتى الغذاء والعشاء ومن الدجاج ستة وعشرين طائرا "

وقيل أنه لما انتهى العمل من هذاالقصر الكبير أولم السلطان فى ذلك اليوم وجميع القضاة الأربع وسائرالأمراء وقرأ الختمة ومد سماطا حافلا وملأ الفسقية التى بالقصر سكر بماء الليمون ووقف رءوس النوبة على الفسقية يفرقون السكر على الناس بالطاسات — وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين والدهانين . بمجموع ذلك ألفين وخمسمائة خلعات — ووزع على النقباء خلع حرير وفرق على الفعلة كل واحد عشرة دنانير وفرق على الفقراء فى ذلك اليوم خمسين ألف دينار ثم أحضر فى آخر الليل المغانى وأرباب الآلات وقدت وقدة عظيمة بالقصر — تلك الليلة وأحرق حراقة نفط بالرميلة وكانت ليلة لم يسمع مثلها .

وفى أيام العثمانيين — تحول القصر الى مصنع للكسوة الشريفة كما ذكر البكرى وأيد هذا القنصل الفرنسى ماييه فى كتابه وصف مصر .

القسم الثالث من عمائر محمد بن قلاون

(ا) القصور الجوانية :

تقابل وصف هذه القصور فى الخطط بعد ماذكره المقريزى عن القصر الأبلق وسننقل ما كتبه عنها :

يدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية منها واحدة مسامت لأرض هذا القصر واثنان يصعد إليهما بدرج فى جميعها شبابيك حديد يشرف على مثل منظرة القصر الكبير وفى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل تديرها الأبقار من مقره إلى موضع ثم إلى آخر حتى ينتهى الماء إلى القلعة ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان فيجرى الماء فى دورهم وتدور به حماماتهم وهو من عجائب الأعمال لرفعه من الأرض إلى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان ويدخل من هذه القصور إلى دور الحريم وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الاسود والحجر الأصفر موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجواهر المؤلفة فى العقود وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله وتشرف الدور السلطانية على بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن .

(ب) السبع قاعات .

كانت تشرف على الميدان وباب القرافة عمرها الملك الناصر محمد بن قلاون وأسكنها سراريه ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة سوى من عداهن من بقية الأجناس . وقد يكون موقعها اليوم قصر الجوهرة الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية بالقلعة

(ج) باب النحاس

كان هذا من أجل أبواب الدور السلطانية . عمره الناصر وزاد فى سعة دهليزه — والظاهر أن هذا الباب كان فى أبواب القصر المخصص لسكنى الملك وحرمه . وقد زال بزوال القصر الذى كان مركبا على أحد دهاليزها بقلعة الجبل

(د) باب القلة[1]

يستفاد مما ورد فى كتاب صبح الأعشى عند الكلام على القلعة (ج٣ص٣٧٢) أن باب القلة كان واقعا فى أحد الأسوار الداخلية الواقعة فى القسم الشمالى الشرقى فى مبانى قلعة الجبل . وكان السور الذى فيه هذا الباب يفصل بين الساحة التى كانت خلف باب القلعة العمومى و بين الدور السلطانية . وكانت هذه الساحة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . و يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على باب القلة (ص٢١٢ ج٢) أنه عرف بذلك لأنه كان هناك قلة (برج مرتفع) بناها الملك الظاهر بيبرس ثم هدمها الملك المنصور قلاون فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . و بنى مكانها قبة ثم هدمها الملك الناصر محمد ابن قلاون . وجدد باب القلعة على ما هو عليه فى زمن المقريزى وعمل له بابا ثانيا .

وقد اندثر هذان البابان بسبب ازالة السور الذى كان فيه البابان المذكوران وقد كانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلعة الحالى و يستفاد مما هو مبين على خريطة القاهرة رسم سنة ١٨٠٠ ان هذا الباب كان يسمى باب المدافع — وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) جدد محمد على باشا الكبير باب القلة الحالى وهذه البوابة واقعة بعد البوابة الوسطى على اليسار تجاه الباب البحرى الشرقى لجامع الناصر محمد بن قلاون — وتوصل الى تكنات الحرس الملكى والمتحف الحربى

---

[1] محمد رمزى بك — تعليقات كتاب النجوم الزاهرة — جـ ٨ ص ٤٥ وجـ ٩ ص

(هـ) دار النيابة :

وننقل فيما ماجاء فى كتاب الخطط المقريزية عن دار النيابة :

" كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاون فى سنة ٦٨٧هـ سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة وكانت النواب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ٧٣٧هـ وأبطل النيابة وأبطل الوزارة أيضا فصار موضع دار النيابة ساحة فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة فلم تكمل حتى قبض عليه فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر ثم قبض عليه فولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر فى أيام الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاون فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢) فى شباك دار النيابة وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها وتوارثها النواب بعده وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين والخميس فى الموكب تحت القلعة فيسيرون هناك من رأس الصورة الى باب القرافة ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة وينادى على الخيل بينهم وربما نودى على كثير من آلاف الجند والخيم والجركاوات والأسلحة ثم يطلعون الى الخدمة السلطانية بالايوان بالقلعة فاذا مثل النائب فى حضرة السلطان وقف فى ركن الايوان الى أن تنقضى الخدمة فيخرج الى دار النيابة والأمراء معه ويمد السماط بين يديه كما يمد سماط السلطان ويجلس جلوسا عاما للناس ويحضره أرباب الوظائف وتقف قدامه الحجاب وتقرأ القصص وتقدم اليه الشكاة ويفصل أمورهم فكان السلطان يكتفى بالنائب ولا يتصدى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر واذا قرئت القصص على النائب نظر فان كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه ومالا يكفى فيه الا مرسوم السلطان أمر بكتابته عن السلطان

وأصـدره فيكتب ذلك وينبه فيه على أنه باشارة النائب ويبرز عن نواب السلطان بالممـاليك الشامية بأن يعبر عنه بكافل المملكة الشريفة الإسلامية وما كان من الأمور التى لابد له من من إحاطة علم السلطان بها فانه إما أن يعلمه بذلك منه إليه وقت الاجتماع به أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه وكان ديوان الاقطاع وهو الجيش فى زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ولا اجتماع إلا به ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور فلمـا أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان واستمر ذلك بعـد إعادة النيابة وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النـائب فى بعض الأمور دون بعض ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام محمد بن قلاوون وتلاشت أوضاعها فلما مات أعيدت بعده ولم تزل إلى أثناء أيام الظاهر برقوق وآخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخى وبعـده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية ثم ان الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة فلم يسكن دار النيابة فى القلعة ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ولم يل النيابة بعد تمراز أحد وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى وكانت سائر نواب المماليك الشامية وغيرها تكاتبه فى غالب ماتكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان وكان يستخدم الجند ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة ويعين الأمرة لكن بمشاورة السلطان وكان النـائب هو المتصرف المطلق التصرف فى كل أمر فيراجع فى الجيش والمـال والخبر والبريد وكل ذى وظيفة لايتصرف إلا بأمره ولايفصل أمرا معضلا إلا بمراجعته وهو الذى يستخدم الجند ويرتب فى الوظائف إلا ما كان منها جليلا كالوزارة والقضاء وكتابة السر والجيش فانه يعرض على السلطان من يصلح وكان قل أن لايجاب فى شىء يعينه [١] .

---

١ — الخطط المقريزية ، ج ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠.

(و) الطباق — ثكنات الجند[1]

عمرها الملك الناصر محمد بن قلاون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعنى بهم غاية العناية حتى أن الملك المنصور قلاون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته فمتى رأى فيه عيبا اشتد على المشرف والاستدار ونهرهما وحل بهما منه أى مكروه ، وكان يقول كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك ، وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاون سمح للماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار ولا يبيتوا إلا بها فكان لا يقدر أحد منهم ان يبيت بغيرها ، ثم أن الملك الناصر محمد بن قلاون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بن قلاون ، وكانت للماليك بهذه الطباق عادات جميلة أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله فى طبقة جنسه وسلمه للطواشى فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن أداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك

(١) لم تكن هذه الطباق دورا بعضها فوق بعض بل كانت قاعات متجاورة لكل جماعة من طباق خاص بهم — وكانت هذه الطباق واقعة فى الحوش الذى به اليوم ثكنات الحرس الملكي والمتحف الحربى وجامع سيدى سارية .

الصغار فاذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه وأقرأه فيه مقدمة فاذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج اليه واذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنوا منهم فينتقل إذن إلى الخدمة وينتقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر . هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته فان عثر أحد من معلميه الذى يعلمه القرآن أو الطواشى الذى هو معلم اليه أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدمى الطباق فى السحر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة فيبعث من يكشف عن سبب جنابته لن كان من احتلام فينظر فى سراويله هل فيه جنابة أم لا فان لم يجد به جنابة جاءه الموت من كل مكان فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى اظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى وكانت لهم الادارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم على من قصدهم ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعى الحال فى ذلك بعض الشىء إلى أن زالت دولته فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة واخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد

ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزا عن شراء اللحوم وغيره هذا وبقى الجالب من المماليك هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسلم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشؤونهم فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم اعراضا عن الدين ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فارة وأفسد من ذئب لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء أيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى أنه مامن شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاون سنة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلها طوائف فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية واوشاقية ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث فى طلبهم وبذل الرغايب للتجار فى حملهم إليه ودفع فيها الأموال العظيمة ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم وفى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر إلى عشرة دنانير ثم نقلته من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة فأتاه من المماليك شىء كثير رغبة فيما لديه حتى

كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر وبلغ ثمن المملوك فى أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها . وبلغت نفقات المماليك فى كل شهر إلى سبعين ألف درهم ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم [1]

(ز) الطبلخانة

شيدت الطبلخانة تحت القلعة فيما بين السلسلة (باب العزب) [2] وباب المدرج فى مكان دار العدل القديمة التى هدمها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٢هـ (١٣٣٢م) وصار ينزل الى عمارتها بين الفينة والفينة وتولى عمارتها آق سنقر . شاد العمائر — ووجد فى أساسها أربعة قبور عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين وتاريخ وفاتهم فنبشوا ونقلوا قريبا من القلعة .

وكانت الطبلخانة ساحة بغير سقف فلما ولى الأمير سودون طاز امير أخور وسكن الاسطبل السلطانى . عمر هذه الطباق فوق الطباق وكان الغرض من عمارتها صحيحا فان المدرسة الاشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخانة . ولما كان زمام الفتن بين أمراء الدولة تحصن فوقها طائفة ليرموا على الاصطبل والقلعة فأراد ببناء هذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة حتى لايقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية .

ومن المحتمل أن تكون دار المحفوظات الحالية قد شيدت على انقاض الطبلخانة . ونحن لانعلم بعد ما صارت عليه هذه الطبلخانة فيما بعد وفى أى عصر أهمل شأنها وزال استخدامها .

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ٣٤٦ — ٣٤٨

(٢) ليس هو باب العزب القائم اليوم بل على مقربة منه

(ح) الحوش :

استهل العمل فيه على أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ، سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨م) وكانت مساحته أربعة فدادين. وكان موضعه بركة كبيرة قطع مافيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غورا كبيرا .

وحينما شرع فى العمل ، ألقى على عاتق كل أمير من أمراء المئين تقديم مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب ، كما عهد بنفس الشئ الى كل أمير من أمراء الطبلخاناه ، وندب الأمير أقبغا عبد الواحد " شاد العمائر " للاشراف على عملية البناء .

وتوافد من لدن كل أمير جنده ودوابه كما مثلت الأسارى، وسخروالى القاهرة ووالى مصر الناس، واستقدمت رجال النواحى، وجلس استادار كل أمير فى خيمة ووزع العمل عليهم بالانصاب. ومضى العمل على النسق المرتب ، يواليه بعنايه الأمير اقبغا الذى كان لاينفك يستحث الناس فى سرعة العمل واتقانه. وكان الملك الناصر يحضر يوميا بنفسه يتفقد مسيرة العمل .

ومما يذكر أن العمال نالهم من مشاق العمل ضرر بالغ مرجعه شدة الحر وقسوة الجو .

ونفض العمال ايديهم من البناء بانقضاء سنة وثلاثين يوما ، وصار معدا الأعداد الذى وضع له فى بداية الأمر .

وكان أن حشد فيه الفى رأس من الغنم والأبقار جلبت من الصعيد والوجه البحرى ، ثم اجرى الماء بين جوانبه من القلعة وقد قيل أن اعداد الأغنام بلغت بعد موت الملك الناصر ثلاثين الف رأس سوى اتباعها ، ولأسباب ما أبطل استعمال الحوش للحيوانات .

وفى أيام الملك الظاهر برقوق ، اتخذ الحوش مقرا للاحتفال بالمولد النبوى الشريف ومكان هذا الحوش اليوم — القسم المنخفض من مبانى القلعة فى الجهة الشرقية منها حيث يوجد الآن ديوان كتخدا . وهو القاعة الكبيرة التى تسمى قاعة العدل — انشأها محمد على الكبير فى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) وكان يجلس فيها الكتخدا أى وكيل الوالى لنظر أمور الدولة ومصالح الناس ويوجد فى الحوش الآنف الذكر دار الضرب القديمة التى كانت فى وقت ما دارا للمحفوظات — وبجلها داخل سور القلعة الحالية .

(ط) الاسطبلات :

كان أول من استحدث الاسطبلات بالقلعة — الملك الكامل واستمرت فى أيام خلفائه ، ولكن على عهد محمد بن قلاون زادت نموا ونشاطا واتسعت رحابها — فهو بحق لا يعتبر منشئها ولكن مجددها ومحييها .

وقد أسهب المقريزى فى الكلام عن هذه الاسطبلات . وهى مجموعة من المبانى كان يقيمها بعض كبار أمراء دولتى المماليك بغية سكنى الأمير هو وأسرته ومماليكه وخيوله — فكان الاسطبل يشمل قصر السكنى وبيوتا لمماليكه واسطبلات لجياده ومخازن لمؤونتها وحفظ سروجها — ومثال لها اسطبل قوصون الذى كان بجوار مدرسة السلطان حسن ، وله بابان أحدهما من الشارع بجوار حدوة البقرة والثانى قبالة باب القلعة المعروف بباب السلسلة — انشأه الأمير علم الدين سنجر الجقدار ولكن ابتاعه منه الأمير سيف الدين قوصون وصرف له ثمنه من بيت المال . وما لبث أن زاد فيه قوصون وأضاف بداخله عدة عمائر بين دور اسطبلات . فجاء قصرا عظيما .

وموضع اسطبل قوصون[1] اليوم المنطقة التي تتضمن القصر الأثرى الباقى الى اليوم خلف جامع السلطان حسن المعروف بقصر يشبك أو بقصر الأمير اقبردى الدوادار وقد حرف العامة الاسم الى بردق فأصبح يعرف بقصر بردق — والأرض الفضاء المحيطة بهذا القصر التى كانت تعرف بحوش بردق والأرض القائم عليها الآن مدرسة عثمان باشا ماهر الواقعة خلف القصر بشارع قرقول المنشية والأرض القائم عليها النصف الغربى من عمارة والدة الخديوى اسماعيل الشهيرة بعمارة خليل أغا المطلة على ميدان صلاح الدين خلف جامع السلطان حسن

وكانت وظيفة ناظر الاسطبلات جليلة القدر فى أيام المماليك ، وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاون

ويستفاد مما ذكره المقريزى أن الأسطبل السلطانى فى أيام الناصر محمد مكانه اليوم مجموعة المبانى التى بها مخازن وورش الجيش المصرى بالقلعة الواقعة على يمين الداخل من باب العزب الذى كان يسمى قديماً باب الاسـطبل — فى المسافة الممتدة بين جامع احمد اغا الى نهاية الورش من جهاتها الغربية والقبلية والشرقية — هذا مع العلم بأن المكان الحالى للاسطبل المذكور ليس فى منسوب أرضية قلعة الجبل . بل هو فى مستوى أوطى مما عليه فى القلعة ويحيط به السور الأسفل الغربى المشرف على ميدان صلاح الدين[2] .

(ى) الميدان :

وإلى هنا قد تكلمنا عن مشتملات قلعة الجبل الرئيسية فى داخلها وخارجها ، ولا بد أن نحول حديثنا إلى ميادينها حيث يتدرب الجند ويعرض الجيش .

(١) محمد رمزى — تعليقات النجوم الزاهرة — جـ ٩ ص ١١٠ — ١١١

(٢) محمد رمزى — تعليقات النجوم الزاهرة — جـ ٩ ص ٣٩

لقد احتوت القاهرة على ميادين شتى ، والحديث عنها ليس هذا مجاله فنقتصر الحديث الآن عن ميادين القلعة . فنلجأ إلى عمدتنا فى البحث وهو المقريزى .

كان أهم تلك الميادين — وما زال إلى اليوم — قره ميدان ، أو الميدان الأسود ، وهو الذى يطلق عليه المقريزى ميدان القلعة .

مثل هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون. جدده الملك الكامل بن العادل فى عام ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ثم عنى به الملك الصالح نجم الدين أيوب عناية زائدة وأنشأ حوله الأشجار . فجاء من أحسن الميادين. وفى عام ٦٥١ هـ هدمه الملك المعز أيبك التركمانى فزالت آثاره . وفى عام ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) عمره الملك الناصر محمد بن قلاون وحفر فيه الآبار والسواقى وغرس خلاله النخيل والأشجار وأدار عليه سورا من الحجر وبنى حوضا للنيل من خارجه . فتأتى ميدانا فسيح المدى يمتد تحت سور القلعة من باب الأسطبل إلى قرب القرافة . ويستفاد مما أورده ابن أياس فى كتاب " بدائع الزهور " (ص ٥٦ ج ٤) أن السلطان الأشرف قنصوه الغورى عمر هذا الميدان عمارة لم يسبق لها مثيل فى سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) فردم أرضه بالطين وعلى أسواره وجعل له بابا كبيرا مطلا على الرميلة وعليه قصر فاخر . وأنشأ بالميدان بستانا غرس فيه جميع أنواع أشجار الفاكهة وهيأ به مقعدا وبيتا كما أقام فى الجبهة الغربية منه قصرا حافلا ومنظرة وغير ذلك من المبانى الفاخرة .

ومن هذا يتبدى أن ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان مكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له ميدان المنشية .

ويقول المقريزى أن الملك الناصر لما انتهى من تعديل هذا الميدان نزل اليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه وخلع عليهم . واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت . وصار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان . وإذا ركب السلطان اليه نزل من درج تلى قصره الجوانى . فينزل السلطان إلى

الاسطبل الخاص ثم إلى هذا الميدان وهو راكب وخواص الأمراء فى خدمته فيعرض الخيول الخاصة للتفسح — وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين و يكون نزوله اليه فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر غير المعتاد النزول منه . فاذا ركب من باب قصره ونزل الى منفذه من الاسطبل الى هذا الميدان يترل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل مايكون من الابهة فيصلى ويسمع الخطبة ثم يركب و يعود الى الايوان الكبير و يمد سماطه ... إلى أن كانت سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨م) فصلى الملك الظاهر برقوق عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد وقعة الأمير على باى فهجر الميدان [١]

(ك) قناطر ميـاه القلعة :

ومن أظهر الأعمال الجليلة التى مانفك أثرها باقيا اليه اليوم تشهد بعلو رأى الملك الناصر محمد — قناطر الميـاه التى أمر بتشييدها لنقل الميـاه بوساطتها الى القلعة . وهو مشروع جبار تدل على بعـد نظره ومهارة مهندس ذلك العصر الذهبى فى تاريخ القاهرة بل وفى تقدم مصر الهندسى فى ذلك الحين .

ولقد أفرد المقريزى عدة صفحات من كتابه لوصف هذه القناطر العظيمة . وسننقل عنه ماجاء فيه لكى نصل إلى جواب هــذا السؤال " من أين تستقى القلعة ؟ . . "

جميع ميـاه القلعة عن ماء النيل تنقل من موضع الى موضع حتى تمر فى جميع مايحتاج اليه بالقلعة . وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل المـاء من بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة — فأنشأ الملك الناصر محمد قلاوون فى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) أربعة سواق على النيل تنقل المـاء إلى الســور ثم من السور القاهرة وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر

---

(١) الخطط المقريزية (الطبعة الفرنسية) جـ ٢ ص ٢٢٨ و ٢٢٩

بيبرس بجوار زاوية تقى الدين رجب التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الاسطبل — فلما كانت ٧٢٨ هـ (١٣٢٩ م) عمل الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة . ويكون حفر الخليج فى الجبل فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة فاذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة ليصير الماء بها غزيرا كثيرا دائما صيفا وشتاء لاينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر فيصب من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع . وعند ما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير سيف الدين قسطلوبك بن قراسنقر الجاشنكير أحد أمراء الطبلخانة بدمشق بعد مافرغ من بناء القناة وساق العين إلى القدس فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس على خيل البريد إلى قلعة الجبل . فانزلوا ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب وتوجهوا إلى حلوان ووزنوا مجرى الماء وعادوا إلى السلطان وصوبوا رأيه فيما قصد والتزموا بعمله . فقال كم تريدون . قالوا ثمانين ألف دينار فقال ليس هذا بكثير .

فقال كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ قالوا عشر سنين . فاستكثر طول المدة . ولما تشاور الأمراء لم يعارضه فيه أحد إلا الفخر ناظر الجيش . فانه قال : بمن يحفر السلطان هذا الخليج ؟ قال : بالعسكر . قال : والله لو اجتمع عسكر آخر فوق العسكر السلطانى وأقام سنين ما قدروا على حفر هذا العمل فانه يحتاج الى ثلاث خزائن من المال . ثم هل يصح أولا ؟ فرجع السلطان عن عمله .

ثم أعاد السلطان قسطلوبك وعماله — إلى دمشق ومات عقب ذلك فى سنة ٧٢٩ هـ (١٣٣٩ م) .

فلما كانت سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) اهتم الملك الناصر ثانية بسوق الماء إلى القلعة وتكثيره بها لسق الأشجار وملء الفساقى ولأجل مراحات الغنم والابقار . فطلب المهندسين والبنائين ونزل معهم وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل . فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة فيجتمع الماء من بئرين ويصير ماء واحد يجرى إلى القلعة . فعمل ذلك ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا فركب ومعه المهندسون إلى بركة الحبش [1] وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ويمر إلى حائط الرصد [2] وينقر فى الحجر تحت الرصد عشرة آبار يصب فيها الخليج المذكور ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها وكان فيما بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخليج وبين آخره تحت الرصد أملاك كثيرة وبساتين عدة — فندب الأمير البغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج واشترى الأملاك من أربابها — فحفر الخليج وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا وقطع انشائه وهدم الدور وجمع عامة الحجارين لقطع الأحجار ونقر الآبار — وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل — فعمل عمق الخليج من فم البحر أربعة قصبات وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعا . ولكن توفى السلطان قبل تمام هذا العمل — فبطل وانطمر الخليج بعد ذلك .

---

(١) هذه البركة كانت واقعة جنوبى مدينة مصر فيما بين النيل والجبل ولم تكن بركة بالمعنى المعروف وانما كانت حوضا من الأراضى الزراعية يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويا بواسطة خليج بنى وائل . فكانت الارض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك .

(٢) يعرف اليوم بجبل اسطبل عنتر تجاه قرية أثر النبى جنوبى مصر القديمة . ويعلوه الآن مبنى جدده محمد على الكبير وجعله مخزنا للبارود باسم جبخانة أثر النبى وتسميه العامة اسطبل عنتر واليه ينسب جبل الرصد المذكور — وحائط الرصد هذا هو جهة الجبل الغربية التى تشرف على قرية أثر النبى (محمد رمزى) .

منه إلى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار [1] حتى هدمها الأمير يلبغا السالمى فى سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) وأخذ ما كان به من الحجر فرمم به القناطر التى كانت تحمل الماء حتى يصل الى القلعة وكانت تعرف بسواقى السلطان ، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ونسوا ذكرها .

القلعة فى أعقاب عصر الملك الناصر بن قلاوون

طالعنا فى الفصل السابق تلك الآثار الخالدة من العمائر الجليلة التى شادها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى قلعة القاهرة . والتى يتضاءل شأنها تدريجيا حتى شغلها العثمانيون حينا من الدهر وأتوا على ما كانت عليه من روعة وجمال . فلما وفد الفرنسيون على مصر ، فى أخريات القرن الثامن عشر ، كانت خرائب بالية قد تحدثك أحجارها عن ماضيها المؤود .

ففى أيام خلفاء محمد بن قلاوون ، فى الأبناء والأحفاد ، شيد بعضهم طائفة من القاعات والقصور الصغيرة ، كان منها قاعة الدهيشة والبيسرية

قاعة الدهيشة :

تحدث عن هذه القاعة المقريزى فى خططه . فقال :

عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة وذلك أنه بلغه من الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه أنه عمر بحماه دهيشة لم يبن مثلها فقد قصد مضاهاته وبعث

---

(1) رباط الآثار لايزال موجودا عامرا باقامة الشعائر الدينية باسم جامع أثر النبى بقرية أثر النبى الواقعة على النيل جنوبى مصر القديمة وقد عمرها الصاحب تاج الدين محمد ومات فى سنة ٧٠٧ هـ قبل أن يكمله . فأكمله ولده ناصر الدين محمد وقيل له رباط الآثار لأن الصاحب تاج الدين المذكور كان أهدى بعض القطع الأثرية من مخلفات النبى محمد صلعم ووضعها فى خزانة بهذا الرباط فعرف بها (محمد بك رمزى — تعليقات النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٦١)

الأمير اقبجبا المهندس لكشف دهيشــة حماة وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بحمل التى حجر بيض والفى حجر حمر من حلب ودمشق وحشرت الجمـال لحملها حتى وصلت الى قلعة الجبل وصرف فى حمولتها كل حجر من حلب ودمشق اثنا عشر درهما ومن دمشق ثمـانية دراهم واستدعى الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ورسم باحضار الصناع للعمل ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها وقد بلغ مصروفها خمسمائة الف درهم سوى ما قد من دمشق وحلب وغيرهما وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه بها [1]

وقد قيل أن والده الناصر محمد ابتدأ فى عمارتها ولم يتمه منها فأكملها ابنه هذا . ولم يستطع أحد بعد تفسير كلمة دهيشة — قد تكون " حماما " أو مايشبه المدرسة أو الربع [2]

قاعة البيسرية

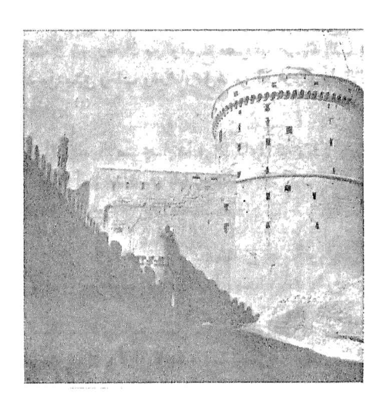
وشيد السلطان الملك الناصر حسن ، أحد أبناء الملك محمد بن قلاون ، الذى اشتهر مسجده الرائع قبالة القلعة ، قاعة البيسرية . ومثل هذه القاعة خصها المقريزى بعنايته — كعهد دائما — فنراه يقول :

كان ابتداء بنائها فى أول يوم من شعبان سنة ٧٦١هـ (١٣٦١م) ونهاية عمارتها فى ثامن ذى الحجة من السنة المذكورة فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها وعمل لهـذه القاعة من الفرش والبسط ما لاتدخل قيمته تحت حصر فمن ذلك تسعة واو بعون ثريا برسم وقود القناديل جملة ما دخل فيها

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٢١٢

(٢) كازانوانا — تاريخ القلعة بالفرنسية

من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم وكلها مطلية بالذهب وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا وعمل السلطان لها برجاييت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه وأكتاف وباب يدخل منه وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد



(شكل ١ — برج المقطم بالسور الجنوبى بالقلعة)

يذهل الناظر اليه بشبابيك ذهب خالص وطرازات ذهب مصوغ وشرافات ذهب مصوغ وفيه مصوغة من ذهب صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب وصرف فى بؤنة وأجره تمنة ألف ألف درهم فضة عنها خمسون ألف دينار ذهبا ويصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة يطل على جنينة بديعة الشكل (١)

(١) الخطط المقريزية — ج ٣ ص ٣٤٤

القلعة فى عهد السلاطين الجراكسة
(١٣٨٢ — ١٥١٧)

جرى ملوك أسرة الجراكسة على السكنى فى أبراج القلعة ، وتركوا جزيرة الروضة ، حيث عاش معظم المماليك البحرية .

وأول سلاطين الجراكسة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق (٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م) ومن أظهر أعماله فى القلعة أنه جدد عمارة القناة التى تحمل ماء النيل الى قلعة الجبل ، وجدد عمارة الميدان من تحت القلعة بعد ما أضناه الخراب ، بل ورواه وزرع فيه القرط وغرس به النخيل ، وعمر صهريجا يملأ بالمياه ومكتبا لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم وجعل عليه وقفا ، كما عمر أيضا بالقلعة طاحونا وسبيلا تجاه باب الضيافة قبالة القلعة ، وابتاع بسطا جديدة لدار العدل عام (٧٨٧هـ — ١٣٨٥ م) .

وقد أورى المقريزى فى "كتاب السلوك" أن فى تاسع جمادى الأولى من (عام ٧٩٠ هـ أو ما يليه) قدمت طوائف من المجندين ونزلوا تحت القلعة وشرعوا فى حفر خندق القلعة وراء أسوارها ، وتوعير طريق باب القعة (باب القرافة) ، وتوعير باب الحوش وباب الدرفيل ، كما تزايد الاهتمام بتحصين القلعة ونقل الأحجار اليها لاستخدامها فى المنجنيق .

وفضلا عن ذلك ، أمر ببناء حائط بين باب الدرفيل وسور القلعة ، وأن يقام حائط آخر فى جوار باب الدرفيل الى الجبل ، وسد باب الدرفيل وباب سارية (الباب المدرج) تحت دار الضيافة .

وهناك كتابة منقوشة تعزز أعمال التحصين التى سلفت ، وهى بادية فى جدار القلعة ، الذى يعزى الى المغفور له الخديوى اسماعيل أمر تجديده .

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق على يد المقر الأشرف السيفى جركس الخليلى

(١) موضع الكتابة الاصلى غير موضعها الحالى . وقد لاحظ كازانوفا فى جزء من قطعة السور المجاورة فراغا مساحته تعادل لوحة الكتابة المذكورة .

أمير أخور الملكى الظاهرى وذلك بتاريخ شهر (ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

وقد لعب جركس الخليلى هذا دورا كبيرا فى أيام برقوق . فهو الذى كان يباشر بناء مستشفى برقوق الكبير ، وهو مشيد خان الخليلى المعروف وقنطرة الخليلى . وقد قتل فى إحدى الحملات العسكرية بالقرب من دمشق فى ١١ ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩م) بعد انقضاء وقت قليل على انهاء عمارة سور القلعة .

وتولى العرش بعد برقوق ابنه فرج (٨٠١ هـ — ١٣٩٩ م) وله من العمر ثلاث عشرة سنة . فأمر بتشييد مسجد الحوش عام (٨١٢هـ — ١٤٠٩م) وكان هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى — وصار يصلى فيه الخدم وأولاد الملك الناصر محمد . إلى أن قتل فرج على يد الأمير شيخ الزعيم الكبير . وقد سبق هذه الجريمة حدوث اضطرابات فى القاهرة وكان الأمير استبغا الزردكاش فى القلعة ، فلما سمع بمصير الأحوال وقرب وصل الأمير شيخ بعد مطاردته فرج ، شرع فى تحصين القلعة واختزان الطعام والماء . ولكن لم يجد كل هذا واستحوذ الأمير شيخ على القلعة وعزل فرج وانتهى الأمر بموته وولى مكانه المستعين سلطانا على مصر وكان العوبة فى يده وما لبث الأمر طويلا حتى كسب العرش لنفسه (٨١٥هـ — ١٤١٢م)

واهتم السلطان شيخ المؤيد بتحصين القلعة ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يف تلك الأعمال حقها من التفصيل ومن أظهر تلك الأعمال القمينة بالتسجيل تشييده جامع على مقربة من سور القلعة . يسميه المقريزى (جامع الصوة) ، وكان موقعه بين الطبلخاناه وباب القلعة (المدرج) .

وقد ذكر المؤرخ ابن أياس بأن هذا السلطان كان لا يقيم بالقلعة الا قليلا وكان — فى معظم أيامه — يلوذ ببيت ابن البارزى فى بولاق ، إلى أن مات بعد مرض لم يمهله طويلا ، وترك العرش لإبنه أحمد .

وتمر السنون سراعا ، ولا يذكر المؤرخون شيئا عن عمارة القلعة سنون عددها خمسين على وجه التقريب إلى أن يجلس على العرش السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢هـ — ١٤٦٧م) اللهم إلا السلطان جقمق الذى نازع منافسه السلطان يوسف برسباى فخلعه وسجنه وتولى الحكم بدلا منه . ومما يذكر أن لهذا السلطان لوحة نقشت عليها الكتابة الآتية وثبتت فى الحائط الأيمن لمدخل باب السارية ويفهم منها ماتم على يديه فى القلعة .

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبته وسلم أمر بتجديد هذا سلم المدرج بباب القلعة الشريفة سيدنا ومالك رقنا الملك الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محب العدل فى العالمين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان العرب والعجم وصاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والسواحلية السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق عز نصره (بتاريخ شهر) جمادى الآخر سنة احدى وخمسين وثمان مائة" .

ولم يتناول ابن اياس أعمال السلطان قايتباى فى القلعة إلا أنه جدد عمارة الإيوان الكبير بالقلعة . وأنشأ المقعد الكبير والبيتين اللذين فى الحوش السلطانى .

وهناك على اليمين — نقش باسم قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٦٦ م) يشمل الكتابة التالية :

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على آله وصحبته وسلم

أمر بتجديد هذه القلعة الشريفة السلطان من فضل الله تعالى وحسن عطائه ونعمته سيدنا ومولانا مالك رقنا سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محب العدل فى العالمين أبو الفقراء والمساكين مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أطال الله ملكه" .

وخلف قايتباى ابنه الناصر محمد (١٤٩٦) ولم تمتد حياته فقد قتل بعد سنوات قلائل ، فخلفه ثلاثة سلاطين ضعاف تعاقبوا على العرش وهم على التوالى . قانصوه الأشرفى وجانبلاط وطومان باى الأول . تميز عهدهم بقصر فترة الحكم ، وتكاثر الاضطرابات ، وانتهاء كل منهم بالعـــزل ، نتيجة لهياج المماليك ، ومحاصرتهم القلعة لطردهم .

وبالرغم من وجود لوحة رخامية مستطيلة عليها كتابة بالنسخ الجميـــل ما زالت باقية فى مكانها الى اليوم تحمل اسم السلطان أبو نصر طومان باى ، فاننا نرى أن قصر مدة حكمه [1] لا تسمح باجراء العمارة التى نوه بها فى تلك اللوحة ، ونعتقـــد عن يقين أنها تعزى للسلطان جنبلاط (٩٠٥ — ٩٠٦ هـ) يؤيدنا فى ذلك ما أورده المؤرخ المصرى ابن أياس فى كتابه . قال :

إن السلطان (جنبلاط) أخذ فى أسباب تحصين القلعة بالمدافع وتركيب المكاحل وادخر فيها ما يحتاج اليه من بقسماط ودقيق وجبن وعسل وحطب وعليق وملأ الصهاريج بالمـــاء . وادخل فى القلعة أشياء كثيرة من احتياج المطبخ ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة وبنى بابا بالحجر على باب المدرج وحصن الابراج التى حول القلعة . ثم إن السلطان صار ينزل إلى الرميلة ويكشف على البنائين الذين يبنون الابراج — وكاد يأمر بهدم قبة مدرسة السلطان حسن لولا أن راجعه فى ذلك الأمير تغرى بردى الاستادار .

تمت كل هذه التصليحات لتقوية مبانى القلعة خوفا من غزو العثمانيين مصر . فقد أصبحوا يهددون مصر من ناحية حدودها الشمالية الشرقيـــة فى جهة الشام — وظهر أثر حملتهم على أيام السلطان قانصوه الغورى وهزيمته فى معركة برج دابق قرب حلب واستشهاده تحت سنابك الخيل . ولم تقاوم أسوار القلعة أو أبراجها قبالة جحافل العثمانيين ومدفعيتهم الخفيفة فى الميدان

(١) كانت مدة حكم طومان باى الأول ثلاثة شهور و ١٣ يوما فحسب .

واستقرت مصر طيلة ثلاثة قرون تقريبا فى إغفاءة عميقة . إلى أن أنهضها من سباتها محمد على الكبير .

فماذا عمر فيها السلطان قانصوه ...

لندع ابن اياس يجيب لنا عن هذا السؤال — فهو مؤرخ هذا العصر الأوحد يشاركه زميله ابن زنبل الرمال — يذكر ابن أياس أن السلطان . أنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ونقل اليه اشجارا من الشام واجرى اليه ماء النيل من سواقى نقاله وانشا به المناظر والبحرة (!) والمقعد والمبيت . وجدد غالب عمارة القاعة منها الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش وجدد عمارة المطبخ الذى فى القلعة وجدد عمارة القصر الكبير الذى بالقلعة .

فى تلك الأيام كان السلطان الغورى يدبر ملكا واسعا — الملك الذى ذكره أبو الطيب المتنبى وهو يمدح كافور الاخشيدى :

يدبر الملك من مصر إلى عدن　　　إلى العراق ، فارض الروم فالنوب

كانت مصر والشام و بلاد العرب و بعض الجزيرة والقسم الجنوبى من آسيا الصغرى فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الاسلامية . وكانت كذلك أيام الغورى و بلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند — و بنى عليها قلاعا لحماية التجارة . وقد اجتهد الغورى زمنا فى الاحتفاظ بسلطان المصريين فى تلك الارجاء على رغم البرتغاليين . وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند فى الحين بعد الحين .

ولسنا نؤرخ مصر الاسلامية . ولنقصر كلامنا على تاريخ القاهرة أيام الغورى . ومعيننا فى هذا المؤرخ ابن اياس الذى يقول فى حوادث المحرم سنة ٩١٥هـ (١٥٠٩) .

(١) عبد الوهاب عزام — مجالس السلطان الغورى ص ٥ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

" من الوقائع اللطيفة أن فى يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشرة . نزل السلطان إلى الميدان ونصب خيمة كبيرة . وملأ البحيرة التى أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التى أنشأها . ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحيرة . وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ . وعلق احمالا بها قناديل — وفرش حول البحيرة الفرش الفاخرة . وعزم على القضاة الأربعة . وسائر الأمراء من كبير وصغير وأرباب الوظائف من المباشرين وأعيان الناس قاطبة . وبات السلطان تلك الليلة بالميدان وبات عنده الاتابكى وجماعة من الأمراء .

ومد تلك الليلة أسمطة حافلة أعظم من سماط المولد . فمد فى السماط أربعة صحن صينى . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية وكل قطعه نصف رطل . وكان من الأرز والدجاج والغنم ما لا ينحصر . ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل . ومن الدجاج ألف طير . ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعين رميسا ؛ حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهوة .

وكان الغورى مولعا بالحدائق والأزهار واجراء المياه فى الحدائق واتخاذ الأحواض والنافورات يدل على ذلك ما انتهجه فى ميدان القلعة . ومثل هذا الميدان وصفه الشاعر الشريفى مترجم الشاهنامه ، وذكره ابن إياس كثيرا . يقول فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٥ (١٥٠٨) .

وفيها كان انتهاء العمل من المجراة التى أنشأها السلطان كما تقدم . فدارت هناك الدواليب وجرى الماء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة .

ثم أن السلطان صنع سواق ثالة . وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من ماء النيل برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميدان وشرع فى بناء بحيرة فى وسط

ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان فكان طول تلك البحيرة نحوا من الأربعين ذراعا وقيل أكثر من ذلك وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر ومظلات على ذلك البستان .

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥هـ (١٥١٠م).

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ما اشتمله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة ؛ فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل بنطع ويجلس عليه وتظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه ويعلق فى الأشجار الأقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع ، ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، إلى أن يقول ، وقد صار هذا الميدان جنة على الأرض .

وقد عاش بمصر ، فى عصر الغورى ، علماء كبار أمثال جلال الدين السيوطى والسخاوى والقسطلانى وزكريا الانصارى .

وقد ترك السلطان الغورى إسمه على أحد عقود قناطر المياه الكبيرة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة .

وهناك لوحة رسمها جنتيلى بللينى Gentile Bellini تمثل استقبال الغورى لسفير البندقية فى القلعة ويرى فيها السلطان جالسا على المصطبة التى التى بناها فى الحوش[1] . ونلاحظ أنه بدون سقف ، وقد كان أول من جلس على التكة السلطان قايتباى ، ولما اعتلى العرش السلطان طومان باى الثانى آخر ملوك الشراكسة (١٥١٦ — ١٥١٧م) أمر بهدم المصطبة المذكورة

---

(١) هناك رأى آخر عن هذه اللوحة المحفوظة فى متحف اللوفر بباريس يقول انها تمثل أحد سلاطين آل عثمان فى الاستانة .

وأعادها تكة كما كانت فى أيام قايتباى — وكانت قد تهدمت فأصلحها وكسيت بالجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما كان يجلس قايتباى وقد قال ابن إياس عنها .

قد عادت التكة للحكم   وانهدمت مصطبة الظلم

وصار طومانباى بين الورى   يمشى الشاه مع الضيغم

فيا له من ملك عادل   قد شاع بين العرب والعجم

وفى أيام العثمانيين يجئ ذكر ديوان الغورى وديوان قايتباى والسلم الذى يتوسط الديوانين ... وكذلك حوش الديوان — ونلاحظ وجود تلك العمائر فى خريطة الفرنسيين التى وضعوها عام ١٧٩٨ كما تظهر السبع حدرات والباب الوسطانى ...

وبهذا ينتهى تاريخ القلعة على عهد دولة المماليك الشراكسة .



(شكل ٢ — أبراج صغيرة أمام باب العزب)

القلعة فى أيام القلقشندى والمقريزى

فى القرن الخامس عشر

اجتمعت لدينا جميع العناصر الضرورية التى تتألف من المتون الطويلة التى وردت فى موسوعتى المقريزى والقلقشندى . وهما مؤرخان مصريان عاصرا القلعة فى أزهى أيامها . ومما سجلاه فى سفريهما الضخمين نستطيع بسهولة أن نعطى للقارئ وصفا واضحا للقلعة فى منتصف القرن الخامس عشر .

والآن لنتمثل أن زائرا وفد على مصر عام ١٤٤٨ مثلا ، فما الذى كانت تقع عليه عيناه ؟ ..

عقب خروجه من باب زويلة ، ميمما صوب الجنوب ، يجد هـذا الزائر أمامه طريقين أحدهما يصل إلى الفسطاط إلى جهة الجنوب وهو طريق الصليبة ، وثانيهما يفضى إلى الشرق أى القلعة وهو طريق الدرب الأحمر فاذا عبر حى التبانة تتفرع الطريق الى فرعين أولهما إلى يمينه ويصل إلى ميـدان الرميلة (صلاح الدين) حيث جامع السلطان حسن يواجهه باب السلسلة والى داخله يلتى المساكن التى تتألف منها ملحقات مبانى القلعة فى أيام الأمن والرخاء كالمقاعد والقاعات التى شيدها السلاطين قبل مائة عام (القرن الرابع عشر) .

ويرى الزائر — أثر اجتيازه باب السلسلة — اسطبلات السلطان والمقعد المعد للاستقبال الذى يطل على ميدان الرميلة والمسجد الذى شاده السلطان فرج بن برقوق عام ٨١٢ھ (١٤١٠م) . والى اليمين تقابله اسطبلات السلطان التى تتصل بباب السلسلة بوساطة مبنى كان يستعمل سجنا للامراء الكبار وكان يسمى (الحراقة) يوصل اليه بدرج . ومن المحتمل أن تكون هذه الحراقة فى الأصل مكانا يقذف منه الوقود الملتهب على الأعداء الذين

يجرءون على اقتحام القلعة من طريق باب السلسلة(١) وسكنها بعض الأعوام أحد الأمراء المكلفين بمراقبة ميدان الرميلة .

ولنراجع — بعد هذه النظرة العابرة — تلك المنشآت التى شاهدها الزائر فهناك خلف مسجد الاسطبل يوجد طريق منحوت فى الصخر يسير بمحاذاة السور المنيع الذى يحيط بالقلعة ، واذا تطلعنا الى أعلى لرأينا المدرجات البديعة والمنشآت الجميلة ذوات المناظر الآسرة جدرها مبلية بالحجارة الصفراء والسوداء بالتبادل ، ومن أجل هذا سمى القصر الرئيسى بالقصر الأبلق ، ويجاور هذا القصر ويبرز من حائطه بين الحوش والاسطبل برج يحمل كتابة تدل على أنه شيد فى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) على أيام محمد بن قلاوون

واذا خلفنا باب السلسلة يبدأ الزائر فى الصعود فيلوح على يساره بعض المساكن . تحول عدة منها الى جامع حديث البناء يعرف اليوم بمسجد الملك المؤيد — ونستمر فى الصعود فنجد الى اليمين باب السر المخصص للسلطان أو لمن يعرف كلمة السر — وكان السلاطين يسهرون على العناية بمراقبة هذا الأمير ، وقد قيل أن السلطان بيبرس جاء مرة متخفيا وكان الجميع يعتقدون بغيابه فى الشام فلم يفتح له الباب حتى فاه بكلمة السر " العلايم " ويفضى هذا الباب الى شرفة كبيرة شيد عليها الايوان — المقعد الكبير المخصص للاستقبالات السلطانية

ثم نوالى الصعود لنلقى نظرة على مبانى الطبلخانة التى تحولت أيام بيبرس الى قاعة العدل للنظر فى شؤون الرعية ، واذا تركنا الطبلخانة

(١) اتخذ هذا المكان بعد عام ١٨٨٢ سكنا للقائد البريطانى بالقلعة وقد أشارت بعض المراجع التاريخية الى هذه الحراقة . ففى النجوم الزاهرة ذكر أبو المحاسن المقعد من الأسطبل السلطانى المعروف بالحراقة كما ورد أيضا سكنه بالحراقة من باب السلسلة .

صعدنا بوساطة سلم كثير الدرج اسمه سلم المدرج له باب بنى فى أيام بيبرس بمعرفة الأمير الدرفيل ولذلك عرف بهذا الاسم ويؤدى هذا الباب الى سلم المدرج ، ومما يذكر أن السلطان برقوق شيد حائطا يربط هذا الباب بالمبانى المجاورة التى أشرنا اليها على يسارنا وهى محجوزة بين أسوار القلعة العالية وهذا الحائط الذى شيده برقوق .

ونحن الى هنا لم نعبر أسوار القلعة الأصلية ، ولم نتجول فى مبانيها الرئيسية ولعل من الأهمية بمكان ، أن نذكر شيئا قمينا بالاشادة ، وهو أن القلعة فى ذياك العهد كانت تنطوى على ثلاثة نطاقات النطاق الأول (القسم) وهو النطاق العسكرى المخصص للثكنات ذوات الأبراج والأسوار المنيعة ، والثانى يشتمل على القصور والمساكن التى يشغلها السلطان ورجال الحاشية والأشياع من عسكريين ومدنيين ، وهذان يعلوان النطاق الثالث الذى فى أسفلهما وتتألف مبانيه من الطبلخانة والأسطبل السلطانى والمساكن التى تعاقبت على أبصارنا .

ولنستهل زيارتنا للنطاقين الأول والثانى .

فاذا صعد الزائر على سلم المدرج الذى يحازى الجدران لمسافة خمسين مترا لقى نفسه داخل برج مربع يؤدى الى الداخل ثم يلف يمينه لقى نفسه فى قلب القلعة كما كانت عليه فى أيام صلاح الدين ، وهنا يتعين أن نتوقف بعض الشىء لنقول إن الغرض من اتباع هذا النظام الهندسى فى بناء الباب الرئيسى للقلعة هو عرقلة المهاجمين الذين يحاولون اختراق القلعة من ناحية هذا الباب ولا يغرب عن البال أن القلعة لم تحاصر البتة ، ولم يقتحمها عدو من هذا الباب — الشىء الذى افضى الى إهمال استعماله على مر الأيام .

وهنا تقابلنا كتابة نستدل منها على تاريخ إنشاء القلعة فى عام (٥٧٩ هـ) (١١٨٣م) هذا هو باب المدرج من إنشاء صلاح الدين[1].

[1] باب المدرج هو باب القلعة العمومى القديم الذى أنشأه صلاح الدين فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣) وقد ورد فى الخطط المقريزية (ج ١ ص ٢٠٤) باسم الباب المدرج ولا يزال موجودا ولكن بطل استعماله وسد الطريق الذى كان يوصل بينه وبين حوش العامة بسبب وجود باب الجديد الذى أنشأه محمد على باشا الكبير فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ — ٢٧) بجوار الباب القديم المذكور والباب الحالى يعرف بالباب الجديد أو الباب العمومى أو الباب البحرى ونضيف على هذا ما جاء عن الباب المدرج فى كتاب وصف مصر وخريطة القاهرة الملحقة به التى رسمها رجال الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠.

كان الباب المذكور يعرف فى ذلك الوقت بباب مستحفظان وهم طائفة من عساكر الجيش العامل وظيفتهم المحافظة على البلاد والدفاع عنها وكان هذا الباب خاصا بهم. وكان يوجد باب آخر يقع غربى باب المدرج يسمى باب الانكشارية وهم طائفة من العساكر التركية أرسلتهم الدولة العثمانية للمحافظة على مصر. وكان هذا الباب خاصا بهم وكان يوجد خلف باب الانكشارية من الداخل باب آخر يسمى الباب الشرك لأنه كان شركة بين المستحفظان والانكشارية يمرون منه على السواء.

وفى ولاية محمد على باشا الكبير على مصر جدد أكثر أبواب القلعة وأسوارها ومن ذلك أنه جدد باب الانكشارية فى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) وهذا الباب لايزال موجودا ولكنه مسدود البناء مكانه غربى باب القلعة العمومى البحرى تجاه باب الدفترخانة القديمة. ولما تبين لسموه أن باب المدرج وباب الانكشارية لا يصلحان لمرور العربات والمدافع ذات العجل أنشأ رحمه الله فى سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م) باب القلعة العمومى الحالى الذى يعرف بالبوابة العمومية أو الباب الجديد ومهد له طريقا منحدرة لتسهيل الصعود إلى القلعة والنزول منها تعرف اليوم بشارع الباب الجديد. وهذا =

و إذ يصل الزائر إلى داخل النطاق العسكرى فى القلعة يلقى قبالته ميدانا فسيحا تحيط به المخازن والمساكن التى يشغلها المماليك وغيرهم . ويرى أمامه برجا كبيرا منعزلا إسمه برج القلة الذى بناه بيبرس .

و إذا أراد الصعود فوق السور لشاهد أمامه القاهرة بمساجدها ومآذنها وقبابها التى شيدها السلاطين والمماليك حديثا ولرأى أيضا عن يمينه تلال المقطم التى أصبحت القلعة مفصولة عنها بعدما استبدلوا بأحجارها فاقتلعوها من محاجرها وأصبحت بذلك حصنا منيعا لا يستطاع الاقتراب منه من ناحية الشرق .

وقد حاول محمد بن قلاوون أن يحول هذا المنخفض الصخرى إلى بساتين وغابات لكن أهمل المشروع لما يتكبده من أموال ووقت وعناء .

وفى نهاية السور ، فى النقطة الجنوبية الشرقية ، يقف برج ينتهى لديه سور صلاح الدين حيث باب القرافة الذى يطل على الصحراء . و يظهر

= الباب يجاوره من الشرق باب المدرج القديم ومن الغرب باب الانكشارية . وقد بطل استعمال هذين البابين من ذلك الوقت اكتفاء بالباب العمومى الحالى . ثم جدد أيضا الباب الشرقى وهو الذى يلى الباب العمومى من الداخل وهو بذاته باب السر الذى سماه ابن أياس (ج ٤ بدائع الزهور طبعة استانبول) باب السبع حدرات لأن الطريق الذى بينه و بين باب العزب أرضها منحدرة وكان بها قديما سبع حدرات يفصل بين الحدرة والأخرى درجة من الحجر وهذا الباب يعرف اليوم بالبوابة الوسطانية ويدخل منها إلى الحوش الذى فيه جامع محمد على وجامع الناصر محمد بن قلاون والبوابة الداخلية بالقلعة[1] .

و باب السر المذكور أعلاه كان لأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتم السر ونحوهما و يتوصل اليه من الصوة وهى بقية ما بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة وكان يقع مقابل الايوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب وكان يغلق ولا يفتح إلا لمن يستحق الدخول والخروج منه ثم يغلق وهذا الباب هو الذى يعرف اليوم بالباب الوسطانى .

---

(١) [تعليق الأستاذ محمد بك رمزى بالنجوم الزاهرة ج ٨/٩]

أن هذا الباب كان قليل النفع ، ويحتمل أنه بنى فى الأصل ليؤدى غرضا واحدا هو ليكون منفذا لحماية القلعة للهروب منه إذا هوجمت القلعة وضيق الحصار على المدافعين .

وتصميم بناء هذا الباب عادى وليس على نمط بناء باب سارية

ولكى يكمل الزائر زيارته عائدا الى باب ساريه . ينبغى عليه أن يمر بباب القلعة الذى سمى باسم البرج السابق ذكره . وهذا الباب يصل بين النطاقين النطاق العسكرى والنطاق السلطانى .

وهذا الأخير يحتوى على مساكن كبار الموظفين فى الدولة كنائب السلطان والوزير (الصاحب) وغيرهما .

ومن باب القلعة يخرج الأجناد والمماليك الى النطاق السلطانى للعرض العسكرى وللاشتراك فى المواكب والحفلات والأعياد والأحداث الكبرى أو الخروج للجهاد . وان كانوا يخرجون لتنفيذ مؤامرة لازال السلطان عن عرشه أو احداث شغب .

والمنشآت التى يحتوى عليها النطاق السلطانى تدل دلالة واضحة على ابهة الحكم فى عهود السلاطين المماليك — ولا سيما فى أيام محمد بن قلاوون .

ويواجه باب القلة الجامع الذى بناه هذا السلطان بمئذنتيه الرشيقتين المكسوتين بالقاشانى الأخضر المنقوش بالكتابة الحسناء . ويقع جنوب شرقى الجامع بئر يوسف .

ويتصل الجامع بقصر السلطان من ناحيته الجنوبية ، أما الواجهة الغربية فتطل على الميدان الكبير للايوان ، هذا الايوان الذى يمتاز بمقعده الكبير الذى تغطيه قبة يكسوها الخزف المموه الأخضر وتحمل القبة العمد العالية ، وقد قيل إن منشىء هذا الايوان الأصلى كان الملك الكامل ابن شقيق صلاح الدين . بناه على طراز الايوانات الفاطمية ثم جدده قلاوون وابنه فيما بعد . ويلاحظ أن هناك شبها كبيرا بين طراز عمارتى الجامع والايوان.

راجع وصف الايوان فى الصفحات السابقة

وقبالة الجامع والايوان و باب القلعة ميدان فسيح يحشد فيه الجند ورجال الحاشية والأتباع فى ملابسهم الفضفاضة وعليها أسلحتهم البيضاء ودرقاتهم المستديرة .

ولم يك هناك فى هذا المكان شيء يحجب هـذه المنشآت عن المدينة ، فكلها عالية شيدت على ربوة تتألف من أرصفة تعلو فوق بعضها . وكانت القصور تكشف الى مسافة بعيدة من النيل والأهرام .

والقصر الأبلق أول ما يلفت الأنظار بين تلك المنشآت . فى ركنه برج هائل اسمه الخرجاء ، تتصل به عدة قاعات تفضى الى قصر آخر مقام على نفس الطراز ، وكانت تستند جدرها على الصخر والى أسفلها الاسطبلات بحاذاة السور الطبيعى للقلعة .وكان هناك درج له أبواب يستخدمه السلطان فى النزول إلى الاسطبل بدون أن يراه أحد .

أما الزاويه الجنوبية الغربية عن القلعة فكان يشغلها قصر الاستقبالات ومن بعده إلى الشرق يمر الزائر إلى قصر الحريم السلطانى وكان ملحقا به مبان كثيرة يشغلها الحشم والخدم . وقد امتـدت الى الزاوية الشرقية للقلعة . وكان يتصل الحريم بالقصر بوساطة باب النحاس ، كما يتصل أيضا بالجامع بوسـاطة باب الستارة ، وقد أقيمت على جانبى القصر القاعات الضخمة التى شيد منها محمد بن قلاوون سبعا . وقد عرفت بالسبع قاعات أو (السبع حدارات) وإحداها عرفت بقاعة الفضة . ثم شيد فيما بعد السلطان حسن بن قلاوون بالقرب منها قاعة البيسرية . وكانت تتوسط تلك القـاعات وتحيط تلك القصور الحدائق الغناء التى تغذيها مياه النيل.

وقد كان فى وسع السلطان إذا أراد أن يتخذ الدرج الخاص فى قصره ويهبط إلى الاسطبلات ثم يخرج من باب السلسلة فالميدان .

وهذا مايستطيع أن يشاهده الزائر بعد انتهاء جولته فى النطاق السلطانية ولم يبق إلا دار الضيافة المجاورة للقلعة حيث كان ينزل فيها الملوك الأجانب وسفرائهم ، وكانت تلاصق الباب الرئيسى للقلعة وتجاور الطبلخانة التى سبق الحديث عنها ....

القلعة فى أيام العثمانيين

١٥١٧ — ١٧٩٨

حين تلاشت مقاومة المصريين للجيش العثمانى ، وطفق العدو يبسط جناحيه على ربوع القاهرة ، نودى فى حى الصليبة وقناطر السباع بأن يخلى الأهالى بيوتهم نظرا لأن السلطان سيقصد القلعة للإقامة فيها . فراع الناس الأمر واحتل العثمانيون دورهم فى الحال .

وبعد أيام ، صعد السلطان سليم إلى القلعة فى موكب فخم وحواليه جنده . وما انفك أن احتجب عن أنظار الناس ، ولم يجلس على التكة كما جرت العادة من قبل . ومنذ ذلك اليوم أهملت القلعة إهمالا شائنا ...

فقد ربطت الجياد فى الحوش لدى الايوان الكبير وباب الجامع ، وصار روث الخيل أكواما متناثرة على الأرض . وبدا دبيب الخراب يتجوّل فى دورها ويتشى محاسنها . وامتدت الأيدى تنتزع رخامها وحلياتها وتقتنص ما تضمنته أحشاؤها من نقوش وتحف ...

فتجردت قاعتا البيسرية والدهيشة والقصر الكبير وما إليها من الأماكن الهامة من بديع رخامها وطرائف زينتها ، وافتقر الايوان الكبير إلى أجمل عمده المسلوبة ... لا لشىء إلا لأن السلطان — غفر له الله — شاءت له هويته وإعجابه أن يشحنها إلى استانبول ، عاصمة ملكه ، التى ابتغى أن يخلع عليها زينة وأبهة من أنقاض القلعة خاصة والقاهرة عامة ...

وياليت الأمر قد قصر على فك نفائس القلعة ونقلها ، بل تمادى أيضا إلى القصور والمساجد ، بل واستباح حرمات الدور ... دور الناس الآمنين . فكان والى القاهرة وهو على رأس جماعة وهم يهجمون على البيوت

يشبه بعصابات اللصوص ، ينزعون منها الرخام والطرائف ، رضى أصحاب البيوت أو لم يرضوا . وفى الوقت الذى كان هؤلاء يجدون فى أعمال النهب والتخريب كان كبار العثمانيين يستلبون الكتب الثمينة من المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمية وغيرها من مدارس القاهرة

ويقضى الأمر بالسلطان — فى سبيل تحقيق أمانيه — بترحيل عدد كبير من أصحاب الصناعات والحرف المصريين ، إلى استانبول . وبذا حرم مصر من أعمالهم الجميلة التى ازدانت بها القاهرة خلال أيام المماليك . وقيل أن السلطان أرسل بدلا منهم عددا من الصناع الأترك .

وشرع السلطان سليم فى مبارحة مصر ، عقب أن استطالت أقامته بها ثمانية اشهر إلا أياما قلائل ، كان يتردد أبانها بين القلعة وجزيرة الروضة بل وقضى معظمها بالمقياس ، دون أن يحاول البتة الجلوس على سرير الملك بالقلعة .

وزايل فى اليوم الثالث والعشرين من شعبان سنة ٩٢٣ ﻫ (١١ سبتمبر ١٥١٧ م) بيت ابن السلطان قايتباى ، ومر بالقلعة فى موكب زاخر بالعظمة يسبقه ملك الأمراء خير بك . ولم يخترق الموكب قلب القاهرة بل فضل السلطان السير فى خارجها .

وسلم مقاليد الحكم الى الأمير خير بك الذى خان سيده السلطان الغورى وانضم الى العثمانيين . وما أن تسلم الزمام حتى صعد الى القلعة فى موكب فخم مخترقا الصليبة بالفجر . وتستولى عليه الرغبة الملحة فى أصلاح مبانيها . فيرسل فى طلب البنائين والنجارين والمبلطين ليصلحوا ما افسده العثمانيون .

دأب خير بك على أصلاح القلعة بينما كان العثمانيون دائبى السطو على دور الأزبكية فينزعون أبوابها وسقوفها ونوافذها ويحملونها على الجمال لبيعها فى الأسواق بأبخس الأثمان . بل أكثر من ذلك كان جنودهم ينزعون أخشاب طباق القلعة ويستخدمونها فى أيقاد النار لطهى الطعام .

وكان الأمير خير بك قد أمر قائد جنود الأنكشارية بالصعود بهم الى القلعة واحضار مكاحلهم وبنادقهم معهم . فلما وصلوا الى ثكناتهم أمروا بادخال تلك المكاحل والأسلحة فى الزردخانة ، كما أمرهم بالأقامة فى طباق القلعة والا ينزلوا اطلاقا إلى الميدان .

وفى يوم ٢٧ ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ (٣٠ ديسمبر ١٥٢٠) أخذ خير بك مفاتيح الأمكنة التى فى القلعة وسلمها لجماعة من الأتراك وطرد البوابين والغلمان كما أبطل الطهاة وأقام جماعة من الترك عوضهم، وأبطل المقرئين الذين كانوا يتلون فى القلعة والمؤذنين كذلك .

رأينا الجنود الأنكشارية (١) تحمى القسم الشمالى من القلعة خلفا للماليك وبعد زمن شغلت طائفة العزب القسم الجنوبى منها . إلا أن هذا التجاور كان مدعاة لأن ينشب الشجار بين جنود الطائفتين مرارا فى القلعة ويتحول منها إلى أحياء المدينة القريبة فيسود الهرج والمرج عدة أيام .

وظلت الطائفتان تضطلعان بأعمال الحامية التركية الى جانب السلب والنهب والاعتداء ، حتى وصلت الحملة الفرنسية الى وادى النيل .

وكانت المبانى الملحقة بالقسم السفلى من القلعة والمجاورة لباب السلسلة مخصصة لرجال العزب ، أما المبانى الأخرى التى تنهض على امتداد الميدان فكانت مقر الباشا (الوالى) — ولم يكن هذا القصر على شىء من الفخامة

فقد وصفه دوما بيه بقوله : (أن القاعة التى يعقد فيها الباشوات مجتمعاتهم ... طويلة ووسيعة . بيد أنها خالية من الزينة . علقت على جدرها سبعة تروس سميكة من خشب الساج قيل أن السلطان سليم — وكان قويا مجيدا للرماية — أصاب الترس واخترق سهمها فى مرة واحدة وقد كان معروفا أن السلطان أرسل هذه التروس والرمح ليظهر للمصريين مدى قوته .

---

(١) وقد سمى بأسمهم سور الانكشارية وهو الأسم الذى أطلقه الفرنسيون عليه .

مسجد السارية (سليمان باشا)

يقال أنه كان فى موضعه جامع قسطة . شيد فى الأصل للجنود الأنكشارية ، الذين أمروا بعدم مبارحة القلعة ، حتى لا يصطدموا بطائفة العزب فى القسم الأسفل من القلعة . بينما كان مسجد ابن قلاون قد تهدمت أركانه ، وأهملت أحواله ، وصار لا يصلح لإقامة الصلاة فيه

وكان هذا المسجد الذى أنشأه بالقلعة الوالى سليمان باشا عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) على طراز مساجد الاستانة . استنبط طرازه من بعض الكنائس البيزنطية — تعلوه قبة كبيرة مكسوة بالقاشانى. قبالتها صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذوات قباب صغيرة كسيت بالقاشانى أيضا .

وفى داخل المسجد كتابة تاريخية عن إنشاء هذا الجامع نصها :

قد بنى وعمر الجناب العالى مملوك سلطان السلاطين سليمان سلطان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته الى يوم الدين وهو أمير الأمراء المصريين سليمان باشا اللهم أجعله من الفائزين مسجدا لوجه الله المعين طلبا لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه عبادة الله وكان تاريخه فاركعوا الله مع الراكعين (وحساب هذه العبارة بالنقط عام ١٩٣٥ هـ) .

مسجد أحمد كتخدة

وقد شيد مسجد آخر بالقلعة فى العهد العثمانى ، وقد بناه الوالى أحمد كتخده (١١٠٩ هـ — ١٦٩٨ م) ، وعلى أحد جدره كتابة باللغة التركية يستدل منها على اسم منشئه وتاريخ انشاء المسجد وقد بين على خريطة القاهرة التى وضعها رجال الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ باسم مسجد العزب .

الوالى اسماعيل باشا التركى

وقد ذكر المؤرخ المصرى عبدالرحمن الجبرتى وأيده دومايه قنصل فرنسا فى مصر أن الوالى اسماعيل باشا التركى (١١١١ هـ — ١١١٦ هـ) نهض باصلاحات شتى فى مبانى القلعة لا سيما فى زاويتها الجنوبية الغربية حيث سكن الباشوات و كذلك رمم قاعة الغورى التى بالبستان . و بنى صهريجا بداخل القلعة وأنشأ الحمام البديع بقره ميدان ونقل إلى القلعة حوض رخام كان قطعة واحدة أنزلوه من السبع حدرات .

رضوان كتخدا الجلفى

ثم يجىء دور رضوان كتخدا الجلفى ، أحد زعماء البكوات فى القاهرة — الذى يتغلب على منافسيه من زعماء الأحزاب الكثيرة التى عرفتها القاهرة فى ذلك العهد ويتحد مع ابراهيم بك ، وبدورهما يضعان أيديهما مع الوالى "قيور أحمد" فأزالوا من طريقهم جميع المنافسين بمؤامراتهم .

وتخلصت القاهرة من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ماتم فى القاهرة من الأحداث فى أيامهما لأنها تعطى صورة لهذه العاصمة .

كان لكل من هذين الأميرين متجه يهدف اليه فى رياسته ، فكان ابراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدبر السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد . وكان الأميران على اختلاف اتجاههما متفقين متآلفين فقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفا .

فعلى ضفة الخليج المصرى ابتاع رضوان دارا أصلها بيت التاجر الغنى الشرايبى ، وهى التى كان بها العمودان المعروفة (بثلاثة ولية) كانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم مايلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة آنذاك متنزها من متنزهات القاهرة المحبوبة تحيط بها

بيوت أعيان التجار والأمراء فلما اشتراها الأمير رضوان بالغ فى زخرفتها وعقد على قاعاتها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع فى هـذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار . وكان للأمير فوق ذلك من الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ومن الجنوب على بركة الأزبكية ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج بالقاهرة مما يلى قنطرة الدكة وأنشأ فى صدر البركة مجلسا خارجا بعضه على عدة قناطر لطيفة و بعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية و بوسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلا وينصب منها إلى الحوض من أسفل ويجرى إلى البستان لسقى الأشجار وابتنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا على الخليج فكان يتنقل فى تلك القصور التى نسقها ابدع تنسيق وقصارى القول أن قصور رضوان كانت تتألق دواما بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والابداع ، وتجتمع فى ابهائها هامات العصر من الأدباء والعلماء فلا غرو أن افتن الشعراء فى مدح رضوان وفى العمل على الاتصال به من هؤلاء عبد الله بن سلامة المعروف بالادكاوى نسبة الى بلدته التى ولد فيها (ادكو) ومصطفى اللقيمى والسيد السديدى وقاسم الونسى وغيرهم . فقد امتدحه هؤلاء جميعا وأنشأوا فيه المقامات والتوشيحات ورأينا الادكاوى يجمع كل ما قاله الشعراء فى هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها (الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية) ولا يكاد يوجد شاعر فى ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان إلا أن رضوانا قد أضله ماهو فيه من نعمة فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصى وقد أروى الجبرتى بأنه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لأهل المجون فصارت القاهرة ميادين للغزلان ونعيما للعشاق .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم فى البلاد ، حتى أنعم الأمير ابراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله ، فشق ذلك على ابراهيم بك الشركسى ، ونمت بينهما الضغائن حتى قتله بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده الى أن ظهر شأن عبد الرحمن كتخدا الانكشارية فاخذ يعضد مماليك الأمير و يقربهم

على أمراء رضوان وتآمروا على اغتيال الأمير رضوان والقضاء على سلطته فتنبه هذا الأخير لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب احياء القاهرة وجامع المحمودية وجامع السلطان حسن واجتمع اليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة لولا أن سعى اليه الأمير عبد الرحمن كتخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم الى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسنت نيته وسلم بنصحهم

وعقب أن نزل الى داره من " قوصون " اغتنم اعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا ، واستولوا على القلعة وبعض الأبواب ، بينما كان رضوان آمنا فى بيته ، فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجلل على داره فأمر بالاستعداد ، وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحدا منهم يقف بجانبه فحارب فيهم الى قرب الظهيرة حتى أصيب فى ساقه برصاصة من مملوكه الصغير (صالح) الذى لاذ بخصومه . ولما أصيب رضوان طلب الخيل وخرج من نقب فى جدار بستانه ، وانسل قاصدا البساتين فلم يتبعه أحد ونهبوا داره. ثم التجأ الى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ودفن فيها عام ١٧٥٤

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة ، وهو الباب المعروف بباب العزب (١) وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين الباقيتين والزلاقة التى كانت موجودة الى أواخر أيام محمد على .

الوالى محمد يحيي باشا

(١٢٠٠ هـ — ١٧٨٥ م)

وكانت القلعة ، فى ذياك العهد ، شبيهة المدينة المستقلة ، تتمتع بعزلتها — لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال وسكن الباشا وفرقة جنود الانكشارية .

---

(١) هو باب السلسلة قديما .

ولما كانت الحامية العسكرية العثمانية تتصل فى هذا العهد بالقلعة أوثق اتصال لسكن أفرادها فى ثكناتها مع اتباعهم ، وكان لكبار ضباطها كلمة مسموعة فى حكم البلاد ، فقد رأينا أن نفرد عدة صفحات للكلام عن هذه الحامية .

الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة (١)

كانت مهمة الحامية العثمانية بمصر الدفاع عنها والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك كانت لها اختصاصات أخرى غير حربية . فهى تساعد الباشا والصناجق (حكام المحافظات والأقاليم من الأتراك والأمراء المصريين) فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر . وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان رؤساء الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة . وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى ادارة البلاد . ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب الى الباشا اذا ما أحسوا منه خروجا على العرف القديم . وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون بها نصوص قانون سليمان . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة . ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جميع الأموال الأميرية .

والحامية العثمانية فى مصر اشتملت على عناصر مختلفة . فهى كانت تضم اخلاطا من العسكر . من العثمانيين والمماليك والعرب والشوام والمغاربة . وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر

---

(١) المجمل فى التاريخ المصرى — تأليف بعض هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول ص ٢٥٥ — عام ١٩٤٢ .

العثمانى . وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٢ الفا و ١٥ الفا (١) وكانت مقسمة إلى سبعة أوجاقات (فرقة من الجند) وهى :

المتفرقة — والجاوشان والكوكاويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان أو يكشيجريان والعزبان . وكان لكل اوجاق اغا أى رئيس وكتخذا . وباش اختيار أى رئيس القدماء فيه . وجماعة الاختيارية . والجوربجية أى الضباط . وكاتب يمثل الأوجاق فى ديوان الروزنامة لكى يساعد فى صرف مرتبات الأوجاق . ولنعرض بشئ من الايجاز لهذه الاوجاقات كل على حدة .

١ — أوجاق متفرقة [٢] : أهم أعمال هـذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وأبريم . ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجيـة مع جماعة الطبالين . ونافخى البورى والمعماريين والنجارين . ويشرف هـذا الأوجاق أيضا على " تشهيل القوافل " ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل " قافلة باشى " أى رئيس القافلة . وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البـارود اللازم لشؤون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان .

٢ — أوجاق جاوشان (جمع جاويشـية) : كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامة ومن واجبـه أيضا الإشراف على شون الغلال الأميرية . وكان المحتسب

---

(١) مثال لعدد وحدات الحامية العثمانية فى مصر فى سنة ١٠٧٤ هـ (١٦٦٤ م) ويوضح أهمية أوجاق مستحفظان ٣٢٦٥ متفرقة — ١٢٦٩ جاوشان — ١١٥٤ كوكلاويان — ٩٠٧ تفنكجيان — ٨٣٣ جراكسة — ٨٩٩ مستحفظان — ١٣٥٦ عزبان — مجموعها ١٣٦٧٣

(٢) متفرقة فى الأصل التركى تدل على أنهم كانوا أصحاب نوع من الاقطاعيات .

فى العهد العثمانى من رجال الجاوشان . وتلخص اختصاصاته فى الإشراف على الأسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن .

٣ — أوقاجات كوكللويان وتفنكيان وجراكسة[1] كانت هذه الأوجاقات من فرقة الاسباهية أى الفرسان ، ويشرف كبرؤها على الباشا ومنهم أغلب رجال الضبط وهم يشرفون أيضا على حكم الأقاليم عن طريق من يقيم بها من رجال هذه الأوجاقات من الجوربجية والمتولية[2] وحكام الأقاليم لم يكونوا يبتون فى أمر إلا بعد مشورتهم ، وكان الباشا ينص عليهم فى كل فرمان يصدره متعلقا بحكم الأقاليم ، ومن أعمالهم أيضا المحافظة على الجسور ومساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين .

٤ — أوجاق مستحفظان[3] : وهؤلاء هم الانكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، وعرفوا بأوجاق السلطان ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان . كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، واغا الانكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة .

وكذلك سردار الحج (أى قائد القوة العسكرية المرافقة للحجاج) وسردار الخزينة (قائد القوة المرافقة للخزينة المرسلة للسلطان)

---

(١) كوكللويان أى المتطوعون وتفنكجيان أى حملة البنادق وجراكسة هم المماليك الذين طلبوا الى السلطان السماح لهم بالانخراط فى سلك الحامية العثمانية .

(٢) الجوربجى أى الحائز لرتبة عسكرية تعادل اليوزباشى وتأتى بمعنى الكبير من رجال الحفظ فى الأرياف أو عين من أعيان النصارى فى الأرياف ، والمتولية أى الذين يتولون الاشراف على الأمن فى الأقاليم .

(٣) مستحفظان اى رجال الحفظ ويسمون بكوجريان أى المعسكر الجديد .

٥ — أوجاق مزبان (رجال البحرية من حملة البنادق) : كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات ، فنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس. وكان من رجاله أمين البحرين ، وهو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة ، فيما يتعلق بالسفن و بالضرائب المفروضة على الغلال الواردة على هذين الساحلين ، وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ، ويشرفون أيضا على الملاهى والبهلوانات والحواة والبغايا .

ولم تتعرض مصر طوال العهد العثمانى حتى قدوم الحملة الفرنسية لخطر الاعتداء من الخارج ، وليس معنى ذلك أن قوات الحامية العثمانية ظلت راكدة ، ولم تشترك فى أية حروب فى أثناء هذه القرون ، فالجيش العثمانى المملوكى اشترك فى حروب السلطان فى أوقات وفى ميادين مختلفة ، فمثلا عند ما هاجم الصدر الأعظم أحمد كوبريللى جزيرة كريت اشتركت الحامية العثمانية المصرية فى هذه الحروب ، وأرسلت قوة من ألفى جندى .

وانتهى ذلك الهجوم بانتصار العثمانيين و بانتزاع كريت من أيدى البنادقة فى سنة ١٦٦٩ وفى أثناء الحروب الطويلة بين الدولة العثمانية والنمسا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر اشترك الجند العثمانى المصرى فى هذه الحروب فى أكثر من ميدان . فأرسلت على دفعات قوات إلى رودس وأدرنة والقسطنطينية وسالونيكا و بلغراد ، وفى الحرب الروسية التركية التى وقعت فى عهد كترين الثانية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر اشتركت فرق من الجند العثمانى المملوكى فى هذه الحرب ووصلت حتى رومانيا

القلعة فى أيام الفرنسيين

١٧٩٨—١٨٠١

هزم الفرنسيون فى معركة (أبو قير) الحربية، ولكنهم انتصروا على المماليك فى معركة (امبابة). ودخل نابليون القاهرة فى الرابع والعشرين من يوليو عام ١٧٩٨، وجعـل مقر رئاسة الجيش العامة فى قصر محمد الألفى بخط الساكت (فندق شبرد اليوم).

وفى السابع والعشرين من سبتمبر فى العام ذاته، أمر الفرنسيون أهـل القلعة بمبارحة منازلهم والنزول الى المدينة للسكن فيها، واصعدوا الى القلعة مدافع ركزها بعدة مواضع، وهدموا أبنية كثيرة، وشرعوا فى بناء جدر وكرانك وأسوار وقوضوا ابنية عالية. وعلوا مواضع منخفضة وغيروا مواضع القلعة وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدروق والبلط والحراب الهندية وهدموا قصر صلاح الدين.

هذا ما ننقله عن مؤرخ هذه الحقبة. عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله.

ثم نراه يقرر — فيما بعد — ان مبانى القلعة قد ضاقت بسكانهـا مما جعل احد الفرنسيين ينقل سكنه الى جامع السارية بعد ما نقلوه اليها من العتاد والغلال والذخائر والأحطاب مع ماهدموه من أماكنها وسووا أبواب الميدان واقتصروا على باب السبع حدرات فى النزول والطلوع الى الميدان المذكور.

واخيرا حينما يسوء حال الفرنسيين فى مصر بعد هزيمتهم قبالة الإنجليز فى معركة كانوب (الإسكندرية) التى دارت فى ٢١ مارس ١٨٠١ يعقد مجلس حربى بقيادة الجنرال بليار فى القلعة ويقوم بينهم شارحا موقف الجيش الفرنسى وكان ميالا الى التسليم فيعارضه بعض أعضاء المجلس.

وتنتهى المفاوضات بين ممثل الإنجليز والفرنسيين بالاتفاق على جـــلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها القوات الفرنسية فى مصر . وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوما على أن يتم الجلاء فى أقرب وقت بحيث لا يزيد عن خمسين يوما بعد يوم التصديق على الاتفاق .

أخلى الفرنسيون قلعة الجبل وباقى الحصون وانتقلوا إلى الروضة وقصر العينى والجيزة استعدادا للرحيل من رشيد ودخلت الجنود العثمانيون القاهرة فى ١٤ يوليو ١٨٠١ .

ثم أخلى الفرنسيون قصر العينى والروضة والجـيزة وأقلعت سفنهم الى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفـات الجنرال كليبر . وساروا من رشيد الى أبى قير وأبحرت بهم السفن فى أوائل أغسطس عام ١٨٠١ الى فرنسـا ثم وقع الجـنرال مينو اتفاقية الجلاء النهائى عن وادى النيل يوم ٣١ أغسطس وبجلاء الفرنسيين بعـد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة احتلالهم وبدأت تتنـازع السلطة فى مصر ثلاث قوات الاتراك والانجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعـة على مسرح النضال السياسى وهو الشعب المصرى .

*
* *

بدأت القلعـة المجيدة التى وصـلت الى ذروة المجـد فى أثنـاء حكم السلاطين المماليك ــ تفقـد بالتدريج مكانتها الرفيعة نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى أو ربما فصل الرأس ، ولم يكد ينتهى القرن السادس عشر حتى آلت أكثر منشئات قلـعة الجبل الى أحضان الخراب . ولمـا زار الرحالة سافارى (Savary) القلـعة فى خلال القرن الثامن عشر (١٧٧٧ — ١٧٧٩) قال عنها :

"إنها لا تتألف الا من مجموعة خرائب وأنقاض تلوح عليها علائم الحزن ، ولم يتبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكنى" .

ومما يذكر أنه كان يقام بالقلعة ، أبان الحكم التركى ، المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الأعياد القومية والدينية كغرة شهر رمضان والمولد النبوى ووفاء النيل .

وفى أول المحرم عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥) وصل محمد باشا يكن الوالى الجديد ، وقد تهيأ له فى الفترة القصيرة التى قضاها فى مصر أن يعمر قصرا ويترك أثرا يتحدث عن عمارته ... فعلى مقربة من باب الجبل الى داخل الحائط تقرأ كتابة باللغة التركية يستدل منها على بنائه قصرا فى الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة . وقد أطلق على هـذا الجزء كلمة (سراى) لدى وصول الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١)

وخير وصف لحال القلعة ، حينما وصل اليها الفرنسيون وصعدوا اليها واتخذوها قاعدة لعملياتهم فى القاهرة ما نورده بعد[1]

تنقسم قلعة القاهرة إلى قسمين : القسم الأعلى حيث يقيم جنود الانكشارية على ارتفاع مائة متر تقريبا من سطح النيل ، والقسم الأسفل حيث يقيم جنود العزب ، ويفصلهما عن بعض سور . وفى داخل القسم العلوى سور صغير يلف حول برج صغير اسمه خزنة القلعة وبرج الانكشارية أقوى أبراج القلعة . أما بئر يوسف فيوجد فى جهة أخرى خلف القسم العلوى ، كما أن هناك سورا آخر يطلق عليه سور الأغا .

ثم قيض الله لمصر المغفور له محمد على باشا محيى مصر الحديثة فطفق يرفع مكانتها ويتبوأ وادى النيل مكانته بين أمم العالم .

---

1) Le Description de l'Egypte . Vol. XVIII, deuxième partie. page 282-288.

انظر الأطلس أيضا اللوحة (٢٦)

القلعة فى أيام محمد على الكبير وخلفائه

١٨٠٥–١٩٣٦

مرت أعوام أربعة ، بين جلاء الفرنسيين وتولية محمد على باشا على مصر ، لم تنعم البلاد فى خلالها باستتباب الأمن وأسباب السلام . . .

ولكن ما أن تربع فى دست ولاية الحكم هـذا المصلح العظيم ، حتى تنفست القاهرة الصعداء . فقد انجاب عن صدرها نظام سيء من الحكم وتلاشت اوزار بالية من المظالم. واستقبلت عهدا جديدا هو بمثابة إشراقة من النور ، شعرت فيـه بمسببات الطمأنينة تقضى على القلق ، ودواعى العمل يمحو التواكل ، ومقتضيات النظام تطغى على الفوضى . . .

وتمهل القـدر ليسجل على وجه الزمن نهار يوم ٩ يوليـه عام ١٨٠٥ (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ) يوما خالدا فى تاريخ مصر ، واستهلالا رائعا فى صفحاتها النواصع . فقـد طالع السيد عمر مكرم الزعيم المصرى يقصد دار محمد على باشا ، فى جمع كبير من الأهالى والجند بل ومختلف الطوائف ويبايعونه بالولاية لأول مرة فى تاريخ وادى النيل ، فلا يجد الرجل العظيم إلا أن ينزل لدى إرادة الشعب ، ويستجيب لرغباته الجياشة .

وتتوالى الأحداث سراعا ، فتحاصر القلعة ، ويذعن الوالى خورشيد باشا لما آل اليه أمره ، ويضطر لتسليمها صاغرا ، فى يوم الاثنين ٥ اغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ) ، ويزنل الوالى حريمه واتباعه وجنوده فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فبولاق . ويتقدم محمد على باشا وبصحبته بعض الزعماء ويشدون على يديه مودعين ، على ظهر السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية . .

ويخلو الجو ، و يصبح محمد على سيد مصر ، و يرنو الى أفق المستقبل بعين ملؤها الأمل والثقة . و يبدأ فى تنفيذ خطته الكبيرة . خطة الاصلاح والتنظيم والبناء ..

وتشاء الظروف أن ينتقل محمد على الى القلعة و يتخذها معقلا له ومقرا . حين شبت فى القاهرة فتنة الجند الارناءود , ومنذ ذلك اليوم ، بدأ النشاط يسرى فى كل ركن من أركانها ، و بدأت الحركة تشيع فى كل منحى من مناحيها

إن أعمال محمد على فى قلعة الجبل ، كانت فاتحة برنامجه الكبير ، فكأنها قد أنشئت فى عصره من جديد . عادت اليها الحياة ، ودبت فيها روح النشاط بعدما احتماته على أيدى بلاد الأتراك ، من ظلم وهوان ، بل لقد أوشكت فى عهده على ماهو أكثر من الخراب والدمار ، فأنقذها محمد على من هذا المآل . وأزال مافيها من الخرائب والأنقاض . وبتعبير أوضح ، أصلح أسوارها ، وأحيا أبراجها وأبوابها ، وشيد فيها ثكن الجنـــد ، ودواوين الحكم ، ومصانع الذخيرة ، ومدارس الجيش ، وقصورا للسكنى ، وأكثر من ذلك أبتنى بيتا لله .

أجل . استطاع محمد على الـكبير ، بهمته العالية ، ونظرته الصائبة ، أن يعيد للقلعة أيام مجدها الأولى — مجد القرون الوسيطة وعظمة حكم المماليك ويرد عليها أزهر عهودها .

ومن المقطوع به ، أن عناية هـذا العاهل الـكريم بالقلعـة لم تك إلا طرفا من عنايته بالجيش الذى ارتأى فيه الدعامة الأساسية التى ينهض عليها كيان مصر المستقلة ، مصر الظافرة ، الجيش الذي خصه بأعظم نصيب من جهوده ، وأوفاه بأكبر قسط من تفكيره ، ومن أجله هيأ دور العلم ومدارس الطب وأركان الحرب والفنون العسكرية ، وأوجد دور الصنعة العسكرية والمدنية ، وأقام الحصون وزودها بالمدافع والجند

والحديث عن جهود رأس الأسرة العلوية التى نذرها للجيش حديث مستفيض متشعب الأطراف ليس هذا مجاله. وبعبارة أبين أن الحديث فى هذا السياق ينصب أنصبابا على أعمـاله العظيمة التى لمست القلعة — تلك الأعمال الجليلة التى تشهد بفضله على هذا الأثر الإسلامى المجيد .

أو ليست أعمال محمد على الـكبير فى قلعة الجبل هى شاهد عيان لهذا الدور الذهبى الذى مر بتاريخ القلعة .

ويشاء القدر أن تشب حريق بالقلعة فى ١٩ رجب سنـه ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤م) فدمر كثيرا من منشآتها . ويحدث فى العام التالى أنفجار بمخزن للبارود قوض أشتاتا من مبانيها وأسـوارها . فلم يلبث محمد على أن عنى بإصلاحها والاستزادة فيها وأرسل إلى سلانيك يستدعى العمال والنجارين ويؤيد ذلك الوثيقة التالية :

من الجناب العالى الى الوزير والى سلانيك :

يطلب منه أن يرسل بمعرفة الخواجه سوترى الألبانى وكيل الخوجات طوصيبجه من النجارين المصريين بذاك الطرف بنائين وعمالا يقومون بتكسير الأحجار وترميم قلعة مصر التى أكلتها النيران حيث شبت فيها قضاء وقدر فى ١٩ رجب سنه ١٢٣٩هـ لأنه لايوجد فى الوقت الحاضر عمال وبناؤن صالحون للقيام بهذا العمل فى مصر .

ونحن ثم ننتقل الى عرض منشئات محمدعلى الـكبير فى القلعة ، على حسب تاريخ عمارتها ، وعلى قدر ما وصل اليه بحثنا .

دار الضرب :

تقع هذه الدار شمالى شرقى ديوان الكتخدا (قاعة العدل) وشرقى جنوبى مسجد محمد على . وهذه القاعة أنشئت أصلا فى عام ١٧٠٩ م ، وظلت باقية

إلى أن جددها محمد على عام ١٨١٢، وأثبت هذا التجديد فى لوح رخامى، على بابها الوسيط، ونصه :

"جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد على باشا والى مصر حالا".

ودار الضرب بناء مستطيل له فناء مكشوف، أحدقت به حجرات متجاورات يعلوها قباب مبنية بالطوب فتحت بأعلاها مناور. ويتوسط الفناء غرفة بيضاوية الشكل مقامة بالحجر.

ويرى إلى الآن بعض الغرف التى كانت بها آلات الضرب .

ومما يذكر أن هذه الدار كانت تجمع عددا كبيرا من الصناع أوفى فى سنة ١٨١٢ على خمسمائة صانع .

قصر الجوهرة :

يقع هذا القصر جنوبى مسجد محمد على. وكان موضعه أبنية قديمة بناها الملك الأشرف قايتباى والسلطان الغورى . وقد نسب المؤرخ الجبرتى الى محمد على هدمها ضمن حوادث عام ١٨١٢ . فقد ذكر :

"انه محمد على" هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن. فهدم المجالس التى كانت بها والدواوين وديوان قايتباى وهو المقعد المواجه للداخل الى الحوش علو الكلار الذى به الأعمدة وديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التى كانت تجلس بها الافندية والمقاوات أيام الدواوين وشرع فى بنائها على وضع آخر واصطلاح رومى وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب .

والمدخل الرئيسى للقصر فى الجهة الشرقية أمامه مظلة محمولة على عمد رخامية ومكتوب على أعلا الباب "يا فتح الأبواب افتح لنا خير الباب" سنة ١٢٢٨ هـ . ويفضى هذا الباب الى طرقة كبيرة بها عقود حجرية تنتهى الى سلم فباب كبير مكتوب عليه بالخط الفارسى "الله ولى التوفيق" ١٢٢٩ هـ

وعلى يسار هذا المدخل أبنية تسودها البساطة متصلة بديوان الكتخدا. وبنهايته الشرقية البحرية قاعة مستطيلة لها سلم مزدوج يوصل الى الميدان الواقع أمام دار الضرب ومكتوب على أحد أبواب هذا الجناح " من آمن بالقدر آمن الكدر " ١٢٢٩ هـ . وكان هذا الجناح مخصصا للموظفين .

أما قصر الجوهرة فكان مخصصا لاستقبالات محمد على وبه قاعة كبيرة عرفت بصالة العرش يتوصل اليها من الباب الأوسط المكتوب عليه " الله ولى التوفيق " وحجرة العرش أو الفرمانات أكبر حجرة بالقصر بجدرانها بقايا نقوش وسقفها على شكل بيضاوى به نقوش مذهبة تمثل آلات حربية وموسيقية تتوسطها سرة خشبية مذهبة بها مجموعة من الفوانيس وهى تشرف على ميدان صلاح الدين .

ويحتوى القصر على عدة غرف كبيرة وصغيرة ولها أبواب تصل الى القاعة الكبرى التى نقش على أعتابها صور لسفن الاسطول وعلى أعتاب هذه الغرف نقشت صور سفن حربية ، وبالجهة الشرقية يوجد حمام فرشت جدرانه وأراضيه بالرخام المستورد من محاجر بنى سويف وبه حوض رخامى من قطعة واحدة .

وقد زار محمد على فى هذا القصر كثير من الأعلام المشهورين منهم الأديب الفرنسى "شاتوبريان" والكونت دى فوربان الذى وصف فى كتابه مدينة القاهرة كما وصف حفلة استقبال (١٨١٧ — ١٨١٨) فى القصر ، ولما زار مصر السلطان عبد العزيز عام ١٨٦٢ احتفل به الخديو اسماعيل باشا احتفالا كبيرا ، وأقام بهذا القصر سبعة أيام[١] .

الدفترخانة (دار المحفوظات) :

شيدت دار المحفوظات على انقاض طبلخانة بيبرس وتقع خارج الباب الجديد الى اليمين ، وقد أمر محمد على ببنائها فى عام ١٨٢٨ (١٢٤٤ هـ) ووجهاتها

(١) حسن عبد الوهاب — مجلة العمارة ، العددان ٣ ، ٤ عام ١٩٤١ ص ٢٨ — ٣٢

مبلية بالحجر — والباب الأصلى لهذه الدار يعلوه لوح رخامى مكتوب باللغة التركية ترجمته ما نصه .

مليك مصر محمد على باشا ذو المآثر	لقدرة العالى تتلألأ الأفلاك فى بروجها
أرض عرشه ملجأ أهل المعارف	ولطالع نوره تزهو الشمس والقمر
بهمته العالية عمرت أم الدنيا	فلم تبق خرابات متهدمة
أطال الله عمره واقباله فهو الذى	جاهد بهمة فى سبيل الدين والدولة
أنشأها لحفظ دفاتر مصر	فانظر هكذا الدفترخانة المتينة النادرة
يا كاشفا أنت فى التفكير ذاك التاريخ	الوجه صوب ماأوه والقلم قال الدفترخانة

ويعلو هذا اللوح سبع كوابيل تحمل " خارجة " حجرية بها ثلاث نوافذ تنتهى من أعلا بكورنيش هرمى .

ويؤدى الباب العمومى الى طرقة معقودة تنتهى الى فناء مكشوف تحيط به عقود ستعمل ظهرها ممرا حول الحوش ينتهى بسور فتحت به المزاغل . وبالجهة الشمالية للفناء باب آخر يوصل الى فناء داخلى أحدقت به العقود الحجرية خلفها ممرات معقودة على جانبيها غرف أعدت للمحفوظات يعلوها دورتان . وطراز دار المحفوظات من طراز السور الشمالى الممتد من الباب الجديد الى شارع المحجر بما فيه الباب المسدود .

قصر الحرم :

يقع هـذا القصر فى داخل قلعة صلاح الدين ويشرف على جبل المقطم والحطابة . وقد أمر محمد على بإنشائه فى عام ١٨٢٧ م ، ويتألف من أجنحة ثلاثة .

فالجناح الشرقي ويصل اليه من باب معقود بواجهته القبلية مكسو بالرخام الأبيض عليه زخارف بارزة ولوح رخامي به كتابة تركية ترجمتها : (١)

إن محمد على باشا حاكم مصر الذائع الصيت
الذى يجد فى العالم فى باب لطفه وكرمه الزخرف التام

هو خديو أعظم يطاول السماء فى علاها ويحاكيها فى ظله
وصاحب السيف والقلم وهو آصف غلامه بمنزلة بهرام

سيفه يشتت شمل زمرة الطغاة
وقلمه كسحاب الربيع وورد حديقة الكرام

قد أنشأ ذلك الحاكم العالم الشأن قصرا جديدا كتحفة
يجدر به إذا كان بهرام بوابه

هو قصر كالجنة ياله من قصر بديع مزخرف
لم ينطبع مثله أصلا فى أديم السماء الصافى كالمرآة

شعرت فى داخله بانشراح إذا شاهدته
ويفوح من صوره ونقوشه أريج الجنان

وقد فتن رسمه بهزاد
بخ بخ هكذا يجب أن يكون الرسام فى العالم

لقد كتب التاريخ "عزيز" بيت بجوهر
جعل الله العلامة مانشغه سعيدا

إن هذا الباب الجميل لمحمد على باشا العادل
ظل مفتوحا بالسعادة الى يوم القيام

---

(١) ترجم هذه الكتابة الأستاذ محمد رشدى رئيس الترجمة بالمحفوظات التاريخية بقصر عابدين .

ويفضى هـذا الباب الى دركاة بها صفف وعقود حجرية على يسارها حجرة للحارس . وهذه الدركاة تؤدى الى فناء مربع بجداره الشمالى باب به دركاة على نسق السابقة توصل إلى فناء آخر تشرف عليه واجهة القصر ، على امتداد الجناحين الآخرين . ويحيط بهذا الفناء أبنية مكونة من طابقين .

وواجهة هذا الجناح مؤلفة من ثلاثة أدوار .

وقد نقشت الجدر الداخلية برسوم زيتية ملونة تمثل جواسق وستائر وأفاريز وزخارف شجرية فيها بعض الزهور .

والقصر يشتمل على غرف كبيرة نقشت جدرها وأسقفها بنقوش جميلة بعضها مذهب .

وهناك سلم مزدوج يوصل من الدور الأرضى للعلوى — وهنا يجد الزائر ردهة كبرى بها أربع ايوانات فى بعض اركانها بابان لغرفتين — وفى بعضها غرفة وطرقة توصل الى باقى أجزاء القصر .

وهـذه الردهة أبهى ما فى الجزء الشرقى من القصر . وكذلك حجرة الفسقية الموجودة بالطرف الشرقى البحرى منه .

والنقوش التى تعلو جدر الغرف تدور حول مناظر الزهور فيما عدا السقف فزخرفه هندسى الشكل .

الجناح الأوسط

يتوصـل الى هـذا الجناح من حديقته الواسـعة التى تبلغ مساحتها ٧٠×٥٧ مترا تقريبـا . أحيطت بتكاعيب الكرم تتوسطها نافورة يعلوها جوسق . وتطل على الحديقة واجهـة القصر ويتوسـطها باب كبير ركب عليه مصرعان عليت حشواتهما بنقوش بارزة — وهـذا الجناح يحتمل أنه كان المدخل الرئيسى للقصر — ويؤدى الباب الى سلم مزدوج يوصل الى الدورين العلوين . والدور الأرضى يحتوى على ردهة

كبيرة بكل ركن من أركانها غرفتان — وجدرها محلاة بصور زيتية وكذلك الأسقف . ويوجد بهذا الدور حمام يتألف من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف جصى حلى بزجاج ملون ثم باب أول وهى غرفة مقسمة الى ايوانين بينهما درقاعة يغطى الجميع سقف جصى من الزجاج الملون وواجهة كل من الإيوانين محمولة على عمد رخامية قواعدها مربعة ومطعمة برخام أحمر اللون .

والقسم الداخلى (بيت الحرارة) يوصل اليه من باب بالغرفة الأولى على جانبيه نافذتان لتوصيل الملابس منها وهو مقسم الى أقسام أكبرها أوسطها يغطى الجميع سقف جصى بتقاسيم زخرفية والسقف محمول على عمد رخامية وبالصدر حوض رخامى كبير من قطعة واحدة .

ومن السلم المؤدى يصل المرء الى الدور الثالث وينتهى الى ردهة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٦×١٤ مترا تقريبا بها أربعة ايوانات مقاس بعضها ١٣×١٠ متر تقريبا . والسقف والجدر مزخرفة ومنقوشة بالصور

الجناح الغربى

يمتد سوره الخارجى مع الجناح الأوسط — ويصل اليه من باب فى السور القبلى — يوصل الى فناء كبير مساحته ٧٥×٦٠ مترا تشرف عليه واجهة الجناح المتصلة بباقى الوجهات . ويتوسطها باب يوصل الى القاعة الكبرى بالدور الأرضى والى السلم المزدوج — وتصميم هذا الجناح يماثل تقريبا تصميم سابقيه وله واجهة أخرى تطل على مدخل القلعة . وقد طرأ عليه تغيير كبير اذ أبدلت سقفه بأخرى حديدية فازيلت زخارفه .

وجميع أجزاء القصر تتصل بعضها ببعض — كما أن بفناء كل جناح سور به باب يوصله بالجناح الآخر(١) .

---

(١) حسن عبد الوهاب — مجلة العمارة جـ٣و٤ ص٣٨ — ٤١

دار الصناعة :

لعل هذه الدار كانت أهم منشئات محمد علي الكبير العسكرية بالقلعة... فقد كانت الصناعة فى مصر محصورة قبل محمد على الكبير فى نسيج الكتان والصوف والنجارة والسبك وصناعة الحصر وما اليها من الصناعات المختلفة . فلما تولى محمد على بدأ بالتقاط من تبقى من أرباب الصنائع وحشدهم فى القلعة سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٦م) وجمع لهم ما فى المخازن من الخشب والحديد فشرعوا فى صنع آلات الحرب وصب المدافع ومايلزمها من العجلات والعربات

ومع إنشاء محمد على للصانع الحديثة أوفد البعثات من نجباء التلاميذ المصريين الى اوربا لاتقان الصناعات حتى تستغنى البلاد بهم عن اليد الأجنبية .

أنشأ محمد على فى القسم الجنوبى من القلعة دار صناعة كبرى تضم مصانع متنوعة أهمها مصانع للأسلحة الخفيفة ولطرق النحاس ولصب المدافع وسيوف الفرسان وزماحهم واللجم والسروج وملحقاتها وصناديق الذخيرة وغيرها .

وكانت هذه المصانع تمتد من اسفل قصر الناصر بن قلاون الى باب العزب . ومازالت آثارها الى اليوم تشغلها ورش و بعض مخازن مصلحة الأسلحه والمهمات .

قبل أن بدء انشاء دور الصناعة بالقلعة كان بها فى عام ١٨٢٣ مصانع تافهة ، بيد أن من المؤكد أن أرجاءها قد اتسعت عام ١٨٢٧ . وكان أهم مصانعها وأكثرها نشاطا معمل صب المدافع الذى كانت تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة عيار ثمانية أرطال وصنعت فيه مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة

وقد أشرف على ادارة هذه المصانع اللواء ابراهيم أدهم باشا ، وكان يعمل فيها تسعمائة صانع ينتجون شهريا من ٦٠٠ الى ٦٥٠ بندقية ، وقد بلغ تكاليف البندقية الواحدة ١٢ قرشا . وكان لرؤساء الصناع مرتبات ثابتة وللعمال أجور يومية .

ولما زار المارشال "مارمون" دار صناعة القلعة عام ١٨٤٤ أعجب بنظامها وأعمالها وقد قال عنها : مما أعجز عن توفيته حقه من المدح مصنع الأسلحة الذى يبدع من هـذه الأسلحة أكثرها استجاعا لضروب الكمال والاتقان . والمعامل من هذا القبيل فى مصر ثلاثة . زرت منها معمل القلعة فاحصا مدققا منتقدا . فرأيت أن الأسلحة التى تصنع قد جمعت وسائل الاتقان المتوفرة فى ما تصنعه معاملنا من نوعها . والنوع الذى يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسى — وبجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة هذا السلاح تتخذ فى معاملنا سواء — وقد اتبعت فيها طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة فى معاملنا . فان كل شىء يعمل بالقطعة وفقا للنظام المقرر . وخلاصة القول فان معمل السلاح الذى زرته يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاما وجودة وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد (١)

جامع محمد على (٢)

رأينا محمدا عليا قد شيد فى القلعة القصور ودواوين الحكم والمدارس ودار الضرب ثم أصلح أسوارها وعمر أبراجها — وسنراه يشيد مسجدا لأداء الفرائض وليكون له المقر الأخير . فعهد الى المهندس التركى يوسف بوشناق بوضع تصميم له فوقع اختياره على مسجد السلطان أحمد بالاستانة واقتبس منه مسقطه الأفقى بما فيه الصحن والنافورة مع تعديلات قليلة

شرع فى بناء الجامع سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) واستمر العمل سائرا بلا انقطاع حتى توفى محمد على سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) فدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل الجامع — وكان بناؤه كاملا من أسوار وقباب ومنارات وكتابات تعلو الشبابيك الخارجية .

ولما تولى عباس الأول نهض المهندسون بأعمال النقش والتذهيب وبعض أعمال الرخام بالمسجد . ثم أمر بعمل تركيبة رخامية ومقصورة

(١) كلوت بك — لمحة عامة فى مصر ج٢ ص ٤٥٤ — ٤٥٥

(٢) حسن عبد الوهاب — مجلة العمارة .

نحاسية . ثم عنى بالمسجد سعيد باشا . كما اهتم الخديو اسماعيل باشا فعمل له أبوابا حديدية بسياجات نحاسية وأحاطه بأسوار وأنشأ له دورة مياه .. ثم عنى به المغفور له توفيق باشا سنة ١٨٧٩ فأمر باصلاح رخام الصحن وإعادة رصاص القباب

وكانت أكبر رعاية نالت هذا الجامع عناية المغفور له الملك فؤاد الأول فما أن وصل إلى مسامعه نبأ الخلل الجسيم الذى تطرق إلى سقف الجامع وقبابه حتى أصدر أمره بتكوين لجنة من كبار المهندسين — وطنيين وأجانب — لفحصه ووضع مشروع لإصلاحه وكان ذلك فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ .

وانتهى الأمر بازالة قبة الجامع الكبيرة وما حولها من أنصاف قباب وقباب صغيرة واعادة بنائها , وقد كشفت عملية الاصلاح عيوبا شتى فى البناء واستمر العمل حوالى أربعة أعوام انتهى فى سنة ١٩٣٩ وبلغت تكاليف أعمال الهدم والبناء ٦٠,٠٠٠ جنيه مصرى ونفقات البياض والزخرفة حوالى ٤٠,٠٠٠ جنيه .

وصف المسجد :

المسجد مستطيل البناء ينقسم إلى قسمين : القسم الشرقى وهو المعد للصلاة ، والغربى وهو الصحن تتوسطه نافورة للوضوء . ولكل من القسمين بابان أحدهما قبلى والآخر بحرى .

والقسم الشرقى مربع الشكل طول ضلعه من الداخل ٤١ مترا تتوسطه قبة مرتفعة قطرها ٢١ مترا وارتفاعها ٥٢ مترا من مستوى أرضية المسجد محمولة على أربعة عقود كبيرة متكئة أطرافها على أربعة أكتاف مربعة يحوطها أربعة أنصاف قباب وذلك خلاف أربع قباب أخرى صغيرة بأركان المسجد وقد كسيت جدر المسجد من الداخل والخارج وكذلك الأكتاف الأربعة الداخلية الحاملة للقبة إلى ارتفاع ١١ مترا بالرخام الوارد من محاجر بنى سويف

ويعلو مدخل الباب الغربى المؤدى إلى الصحن دكة المؤذنين بعرض المسجد مقامة على ثمانية عمد من الرخام فوقها عقود — ولها صاج من نحاس يتوصل إليها من سلم المنارتين . وبدائرة المسجد من أسفل الشبابيك كتب على أعتابها من الداخل أبيات قصيدة البردة

والمحراب من الرخام (الالبستر) يجاوره منبر رخامى أمر بعمله جلالة الملك فاروق أعزه الله — وبالقرب منه المنبر الخشبى القديم للمسجد وهو أكبر منبر فى الآثار العربية .

وفى الركن الغربى القبلى ضريح محمد على يتألف من تركيبة رخامية حولها مقصورة من النحاس المذهب جمعت بين الزخارف العربية والتركية .

وعلى طرفى الواجهة الغربية للصحن منارتان وشرفات ارتفاعهما ٤٨ مترا من مستوى أرضية الصحن بكل منها ٢٥٦ درجة الى نهاية الدورة الثانية .

وتبلغ مساحة الصحن ٥٢ × ٥٤ مترا يحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل ومغشاة من الخارج بألواح من الرصاص كالقبة الكبيرة . وبدائرة الايوانات المذكورة ٤٦ شباكا تشرف على خارج الجامع من الجهات الثلاث البحرية والغربية والقبلية .

وأما الجهة الشرقية فتشرف على الجامع وبها ثمانية شبابيك — ومكتوب على أعتابها آيات من القرآن بالخط الفارسى الجميل بقلم الخطاط المشهور "سنكلاخ" سنة ١٢٦٢ هـ .

ويتوسط الصحن قبة أنشئت سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) مقامة على ثمانية أعمدة رخامية وبداخلها قبة أخرى رخامية مثمنة نقش على أضلاعها عناقيد عنب وبها طراز مكتوب بالخط الفارسى آية قرآنية .

ويتوسط الرواق الغربى بالصحن برج من النحاس المخرم والزجاج الملون بداخلها الساعة الدقاقة التى أهديت إلى المنفور له محمد على باشا من ملك فرنسا لويس فليب سنة ١٨٤٥ م .

وأمام الوجهتين القبلية والبحرية للقسم الشرقى رواقان بهما عمد رخامية تحمل قبابا صغيرة .

وفى عهد جلالة الملك فاروق الأول تمت أعمال الاصلاح بالجامع وافتتحها باداء فريضة الجمعة فيه يوم ٥ المحرم سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) .

وجلالته هو الذى أمر بعمل المنبر الرخامى المجاور للمحراب . كما أمر بسد الفتحات الموجودة فى بجفوة المحراب برخام الالبستر لتكون منسجمة مع باقى الكسوة الرخامية حولها وأمر بتذهيب وكتابة التركيبة الرخامية على قبر جده العظيم .

عمارة أسوار القلعة وتجديد أبوابها وأبراجها

انتهينا من وصف مآثر محمد على الكبير فى داخل قلعة صلاح الدين ، وكأنه لم يبق فيها من مخلفات هذا السلطان سوى القصرين والجامع ودار العدل والضربخانة ، فقد اندثرت معظم أعماله إذا استثنينا أجزاء هامة من السور الخارجى والبئر

لما ولى محمد على الحكم رأيناه يوجه عناية إلى أحياء هذا الأثر العظيم ، أليست القلعة أعظم أثر إسلامى فى وادى النيل ، ألم يحفل تاريخها بالأحداث الجسيمة والمآسى أيضا ، لقد استهوى تاريخ عمارتها أكثر من عالم ومؤرخ ، منهم المقريزى المصرى وكازانوفا الفرنسى وفان برشم السويسرى وكريزويل الانكليزى ، ومؤلفاتهم عن القلعة تعتبر المراجع الفريدة فى تاريخها ...

وتشهد ثلاث كتابات تاريخية بما تم على يد محمد على فى أسوار القلعة وأبوابها ، وتقابلنا أولى تلك الكتابات فوق باب القلعة المواجه لجامع ابن قلاون ، وهى باللغة التركية ، نصها :

كشاد أولدى بخة بر باب فرحا قيلسون ديده بدخواه أعدا
فيله بانيسنه مولا مبارك بحق سورة يس وطه
سنة ١٢٤٢

ونقرأ الكتابة الثانية على باب قصر الحرم الشرقى بتاريخ سنة ١٢٤٢ كما تقابلنا الكتابة الثالثة على باب هذا القصر الغربى وتاريخه ١٢٤٢ أيضا.

وقد اكتشف المؤرخ كازانوفا كتابة باللغة التركية فوق باب الدرفيل المهدم كما كانت حالته فى أواخر القرن التاسع عشر، وهذا نصها بعد الطغراء السلطانية خان مصطفا عبد الحميد محمود ما شا الله .

خديو خطئه معمور لم دنيا كيم
فروغ اخترى أقطاره مهر عالمتاب
نه غم كاورصف إسلامه جونكه اتيمده در
لسان خنجرى أعدا أى دينه رد جواب
بود كاو قلعى بر آثاريى بيان ايده لم
حبها نده بقعة خيوى برون زحد حساب
فور لدى بر در زيبنده طاولا كيم
سوا در شميني وقتده كورمدى
دوام دولت واقباله سوزاولماز هيج
كه اسمى نام محمد على له شهر شباب
زهى وزيرهم بينه صفدر محمود
كه هر ايوره معينى مسبب الأسباب
پيوردى ايلدى تجديد برا شارتله
حصار قلعة يوسف كه أولمشيدى خراب

ثم أشارت ايله سويله كاشفنا تاريخ

بوب باب قلعة عالى يا بيلدى خيرى ماب

سنة ١٢٤٠

ومما يذكر أن محمد على باشا أنشأ الباب الجديد (الباب الحالى للقلعة) في عام ١٨٢٥ . وردم مامه مسافة لكى يسهل الصعود اليها على الأقدام وبواسطة العربات . وهذا الباب يلاصق تقريبا المدرج — وهو مناسب الشكل يمتد خلفه ممر طويل ذو سقف مقبى ينتهى بباب آخر تمتد قبالته فسحة مربعة الى جنوبها باب صغير في وسط الجدار أقامه محمد على أيضا وقد نقش تاريخ البناء على تلك الأبواب والباب المسدود تجاه دار المحفوظات ويقرأ عليها باللغة العربية .

يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب

وتواريخ سنة ١٢٤٠ و ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٤ — ١٨٢٦ م)

وكما قلنا أزال محمد على جل الأنقاض التى تراكمت فى خلال السنين داخل مبانى القلعة ، وأصلح جميع الأسوار والجدر الداخلية والخارجية التى شيدها صلاح الدين والكامل وابن قلاوون وسواهم من بناة القلعة الأمجاد .

الخديو اسماعيل

وفى أثناء حكم الخديو اسماعيل (١٨٦٢ — ١٨٧٩) كانت العناية بالقلعة على أشدها . فقد رمم الكثير فى أسوارها واثبت هذا على لوحة مستطيلة فى الرخام الى يسار لوحة السلطان برقوق بجنوبى باب العزب

ومن المحتمل أن يكون قد اتخذ قصر الحريم نظارة للحربية فى ذلك العهد قبل تشييد ثكنات قصر النيل

وقد أصلح الخديو اسماعيل ميدان الرميلة ووسعه وغرس به الاشجار وأوصله بشارع محمد على . فصار أفسح ميادين القاهرة .

القلعة فى عهد الفاروق المعظم

كان المغفور له الملك فؤاد الأول قد أمر بتجديد أعمدة وسقف مسجد جده العظيم محمد على الكبير ، وقد تم هذا العمل العظيم فى يناير سنة ١٩٣٩ فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، حفظه الله ، حيث تفضل بافتتاحه للصلاة فى يوم الجمعة الموافق الخامس من محرم عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) .

أمر جلالته بأن تبذل العناية بما تضم القلعة من الآثار والأبنية والقصور والمساجد ، فقامت ادارة الآثار العربية بتجديد مسجد الناصر محمد وتكسية جدرانه وحائط قبلته بالمرمر ، واعادة المئذنتين الى ما كانتا عليه ؛ ووكل جلالته الى المرحوم سحاب الماس بك الاشراف على عملية الترميم الفنية فى قصر الجوهرة ودار الكتخدا وقصر الحرم وغيرها من الدور والكنات .

وشغل الحرس الخيالة الملكى ثكنة كبيرة فى الجزء الشمال الشرقى من القلعة كما شغل المتحف الحربى قصر الحرم ، وشغلت المدفعية المحافظة المبانى التى تحيط بميدان سارية العلم ، وقد أمر جلالته باصلاح ساحة القلعة التى كان لويس فيليب قد أهداها لمحمد على باشا عام ١٨٤٥

وفى عهد جلالته الزاهر أعيد الى قصر الجوهرة رونقه الجميل ونقوشه الطريفة التى تنفرد بها جدران كل قاعة ، ويلاحظ فى مدخل هذا القصر أن العاهل العظيم قد نقش شعاره الذى ينص على :

« انى لم أبلغ ما بلغت الا بسمعتى بين شعبى و بمشيئة شعبى »

وقد اضاف الفاروق المعظم منة الى عناية جلالته باعادة الحياة الى تلك المنطقة الخالدة باهداء عدة مئات من الصور الفنية الرائعة التى تمثل ملابس كافة الموظفين فى عهد آل عثمان

ويتجه التفكير لكى يكون لهذا القصر متحف لعصر محمد على شاملا كل الفنون التى برزت آنذاك وسيتضمن أيضا الأثاث الخاص بمحمد على باشا .

وقد ارتدت الحياة الى مبانى دار العدل وغرست قبالتها الحدائق الغناء وأقيم درج من الحجر تصل بينها وبين الحديقة التى تواجه قصر الجوهرة .

وتتوالى الهمة لاصلاح دار الضرب لكى تكون متحفا للعملة المصرية أما قصر الحرم فقد انتهى اصلاح الجزء الأوسط منه وفى سبيل ترميم جزئيه الشرقى والغربى ، كما أنشئت الحدائق حول القصر ورصفت الطرق المؤدية اليه وغرست الأشجار ونسقت المدافع فى ميدان القصر الكبير

كما اتخذت دار الكتب المصرية المبنى الذى يقع على يسار الداخل إلى الميدان الفسيح وجعلتها دار كتب .

رفع علم مصر على القلعة

وفى هـذا العهد السعيد ، فى يوم الخميس الموافق الرابع من شهر يوليه عام ١٩٤٦ ، احتفل بتسليم القلعة للجيش المصرى فى احتفال عسكرى مهيب ، فعادت القلعة بعد انقضاء أربعة وستين سنة الى أصحابها . وسلم الجنرال الفرى القـائد البريطانى لقوات القاهرة مفتاحها الاثرى الى حضرة صاحب السعادة الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فى مظاهرة عسكرية .

وشهد يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٤٦ أروع احتفال فى تاريخ مصر الحديث كله . فكان بحق يوما مجيدا . وسيظل على مر الأيام يوما خالدا فى تاريخ نهضة مصر . ففى هذا اليوم رفع مليك مصر علم مصر على قلعة مصر .

وفى هذا اليوم قال الفاروق المعظم :

لقد رفعت علم مصر فوق قلعة مصر ، ولندع الله أن لا ينزل منها أبدا وسيكون هذا العلم فاتحة خير إن شاء الله ، سيكون رمزا لليوم الموعود .

وقد قضت الارادة الملكية السامية بأن يكون الاحتفال برفع العلم المصرى فوق هذا المكان الخالد الذى له تاريخ مجيد فى عصور مصر الاسلامية . فى ذلك اليوم بالذات لأنه يوم ذكرى وفاة البطل العظيم المغفور له محمد على الكبير مؤسس الأسرة المالكة فى مصر . وقد استعدت وزارة الدفاع لهذه الحفلة التاريخية استعدادا كبيرا يليق بمناسبتها العظيمة ، فأنشأت سارية جديدة للعلم متناهية العلو (٢٨ مترا) فوق أعلى منطقة فى القلعة بحيث تطل على مدخل القلعة من جهة ميدان صلاح الدين وأقيمت هذه السارية على قاعدة جديدة من الجرانيت أشرف عليها الأستاذ سحاب الماس بك وكسيت جوانبها الأربعة بلوحات من الرخام نقشت عليها أسماء المواقع الحربية التى انتصر فيها الجيش المصرى من عهد السلطان صلاح الدين الى عهد المغفور له الخديو اسماعيل .

وقد نقش على اللوحة الثالثة :

"بنعمة الله تعالى رفع حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر وصاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور العلم المصرى خفاقا على هذه القلعة فى الثامن عشر من رمضان عام ١٣٦٥ هجرية الموافق يوم ذكرى وفاة المغفور له جده العظيم محمد على باشا الكبير" .

ونقش على اللوحة الرابعة النطق الملكى الكريم :

"ما دام هذا العلم العزيز يخفق فى هذا المكان لن يصاب الوطن بسوء" حفظ الله الملك .

وأحيطت قاعدة سارية العلم بأربعة مدافع كبيرة يرجع تاريخها الى عهد محمد على الكبير ، اصطفت قوات الجيش المصرى من متباين

الأسلحة على جانبي الطريق ، من ميـدان صلاح الدين من أول منحدر مسجد الرفاعى والسلطان حسن الى الباب الجديد . واصطفت وحدات سلاح الخيالة الملكى خلف الجنود المشاة فى ميدان صلاح الدين .

ووقف على باب القلعة حرس من جنود الجيش بملابس جنود محمد على وكذلك من نهـاية البوابة الخارجية الى نهاية الباب الأوسط . ووقف عند باب ميدان سارية العلم ، تحت برجيه — جنديان من الخيالة بملابس محمد على ، كما اصطف جميع ضباط الجيش من مختلف الرتب عند باب ميدان العلم وحول الميدان .

وقد أقيم فى ساحة العلم المطلة على مدينة القاهرة سرادق كبير صفت فيه المقاعد المذهبة والمبطنة بالقطيفة الخضراء ووضع فى صـــدره مقعد خاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وأعدت لكل هيئة مقاعد خاصة .

ولما عزفت الأبواق من أعلى أبراج القلعة كان ذلك ايذانا بأن الركب الملكى اجتاز بوابة القلعة . ثم دقت الطبول الصغيرة دقات متواصلة فعرف أن الركب الملكى وصـل الى ساحة الاحتفال . ونزل جلالة الملك من السيارة وهو مرتد البذلة "الخاكية" للقائد الأعلى للجيش ومعه عصا المارشالية وكان فى معيته دولة اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء .

وبعد أن صدحت الموسـيقى السلام الملكى ، تفضل جلالته فصافح مستقبليه ، ثم سار محوطا بهم وأخذ مكانه .

خطبة رئيس الوزراء

وألقى دولة رئيس الوزراء بين يدى جلالته الخطبة التالية :

مولاى صاحب الجلالة

اليوم تستقبلك فى هـــذه البقعة الخالدة روح جدك الأعلى المغفور له محمد على باشا راضية مرضية ويستقبلك أحفاد جنوده الشجعان المظفرين

الذين سجلوا اسم مصر فى سجل الخلود من عكا الى نصيبين بل الأمة المصرية ممثلة فى هـذا الاجتماع التاريخى المشهود — يستقبلونك جميعا يامولاى فى غبطة لاتعادلها غبطة، ذلك لأن هذه القلعة التاريخية التى أنشأها البطل الكبير صلاح الدين ودعموا ورفع مقامها البطل العظيم محمد على قد عادت حرة خالصة الى المصريين لما طابقوا الوطنى المصرى وما كرامتها لحصن المصريين أيدى المصريين .

فليس من البر بتاريخ هـذه القلعة بما انطوى عليه من حوادث عظام وأحداث جسام ولا من الوفاء لبانيها وحماتها وكانت دائما رمزا لاستقرار الحكم وعزة الحكام ، أجل يامولاى ليس من البر ولا من الوفاء أن يهون من شأن هـذا الحادث العظيم ، وقد كانت القلعة أول مكان فى القاهرة نزل به الاحتلال فكان حقا وعدلا أن تكون أول مكان يخلص منه وقد خلصت فعلا والحمد لله وأصبحت أول مكان بدأ منه الجلاء المنشود الذى قطعت الحكومة البريطانية عهدا على نفسها يوم الثلاثاء ٧ مايو سنة١٩٤٦ بتنفيذه تنفيذا تاما برا وبحرا وجوا عن جميع الأراضى المصرية تلبية لاجماع الأمة المصرية عليه إجماعا معدوم النظير .

وقد تنافس الحكام والأمراء فى تخليد آثارهم بها ، فالظاهر بيبرس برج عظيم وقصر فخم وللسلطان الأشرف مقعد عظيم وللناصر محمد برج كبير لاتزل آثاره باقية خلف مسجد محمد على وللسلطان حسن بانى الجامع المعروف قصر باذخ وللأمير رضوان الألنى الباب الشامخ الذى يشرف على ميدان صلاح الدين .

ولما نعمت مصر بهدى محمد على الذى كان عنوان استقلالها وعلو شأنها اتجه فيما اتجه له من شتى الاصلاح الى هذه القلعة فأصلح جانبا كبيرا من سورها ودعم ابراجها وأبوابها وأنشأ فيها قصر (الجوهرة) ودار العدل ودار المحفوظات ثم جعل القلعة مقرا لمعامل الأسلحة المتسعة الارجاء .

وجملة القول إن القلعة قد تحولت الى خلية حية تنبض بالنشاط وعدها تجلى بأس الدولة وقوة عزمها و إنتاجها المقتبس من بطولة محمد على ، ثم توج هذا العمران فيها باقامة المسجد الجامع آية كبرى على ما اجتمع لهذا العاهل العظيم من بعد الهمة ونبالة المقصد والشغف بالفنون والمعارف وتجويد الصناعة .

وانتقل رئيس الوزراء الى الكلام عن مسجد محمد على الى أن قال :

مولاى — إن هذا اليوم بيد الأثر ستقبله جادين موقنين بأن له ما بعده من الأيام وخطوة يتبعها خطى فى سبيل الجلاء وعزة الاستقلال و إن كل أيامك ليكتنفها اليمن ويصاحبها التوفيق لوطننا العزيز فما خطت البلاد خطوة ولا وثبت وثبة الا ولها من رعاية الفاروق هدى ونور أعز الله بكم البلاد وأحيا فيكم آثار الآباء والأجداد .

الملك يقبل العلم

وبعد انتهاء الخطبة وقف جلالة الملك وسار محوطا بالجميع الى باب السرادق، فنفخ الجنود المرتدون ملابس عهد محمد على فى الأبواق من أعلى الابراج ودقت الطبول الصغيرة وتقدم ضابط وجندى من عهد محمد على يحملان العلم المصرى مطويا فقبله جلالة الملك وقصد به الضابط والجندى الى مكان السارية التى يرفع فوقها ، وقد صاغ هذا الضابط هذا ضابطا مرتديا ملابس العهد الحالى .

وعرض بعد ذلك علم محمد على يحرسه جنود بملابس عصره لحياه جلالة الملك كما حيا أعلام وحدات الجيش والبحرية والجوية وفى أثناء ذلك حلقت فى جو مكان الاحتفال تسع طائرات فى ثلاث دفعات على ارتفاع قليل جدا وقد كادت احدى هذه الطائرات تمس أعلى السارية وكانت الأبواق تعزف أثناء ذلك من أعلى الأبراج أيضا .

وبعد أن اصطفوا حاملو هـذه الأعلام حول قاعدة السارية، تقدم جلالة الملك وفى معيته وزير الدفاع ورئيس هيئة أركان حرب الجيش الى مكان السارية وتناول العلم — وهو هدية كريمة من جلالته — وشده الى السارية حتى يخفق فوقها تماما فعزفت الموسيقى وأطلقت المدافع كما أطلق فى الوقت نفسه سراح مئات من الحمام فكان المنظر بديعا .

وتفضل جلالته بعد ذلك فأزاح ستارا أخضر اللون عن اللوحة التذكارية الخاصة بتاريخ الاحتفال ثم تفضل فوقع باسمه الكريم على سجل خاص .

وكان دولة رئيس الوزراء فى انتظار جلالته عند نهاية درج قاعدة السارية فتفضل جلالته بمصافحته وتحدث معه فى طريق العودة الى سرادق الاحتفال .

ولما وصل جلالته الى هناك هتف قائد قسم القاهرة "يعيش فاروق ملك مصر" ثلاثا وردد الجميع هتافه وعزفت الموسيقى السلام الوطنى .

نطق كريم

والتفت جلالته الى كبار المحيطين به قائلا "طالما هذا العلم العزيز يخفق على هذا المكان فلن يصاب الوطن بسوء" .

جلالته يصافح قائد الحامية المصرية

ولما بلغ الركب الملكى باب القلعة أمر جلالته بوقوف السيارة الملكية ودعا اليه قائد الفصيلة المصرية التى تتولى حراسة مدخل القلعة وتفضل جلالته بمصافحته وأمره بابلاغ تحيته لرجاله .

وقد أضيئت مساء الجمعة أسوار القلعة وجامع محمد على وجامع الرفاعى وتمثال ابراهيم باشا بالقاهرة وتمثالا محمد على واسماعيل بالاسكندرية ابتهاجا بهذه المناسبة وقد بقى العلم المصرى مرفوعا فوق القلعة فى ليلة الاحتفال .

لسوف يظل اسم القلعة مقترنا باسم الفاروق مدى الأجيال . ففى عهده الزاهر تم تسليمها الى الحكومة المصرية . وبذلك أعيد الى مصر أول مظهر قومى باعادة قمة الجبل الى حظيرتها عليها يخفق العلم المصرى .

المتحف الحربى

وكان يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩ من الأيام المشهودة فى تاريخ القلعة . فقد كان اليوم الثانى من أسبوع ذكرى محمد على الكبير . وقد ناب عن صاحب الجلالة الملك فى هذا الاحتفال صاحب المجد النبيل سليمان داود . وشهده كثير من كبار رجال الدولة وعلمائها وعظمائها وممثلى الدول العربية والغربية ورجال القصر الملكى وضباط الجيش . وكان معالى الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية والبحرية يستقبل المدعوين فى مدخل السرادق الذى أقيم لهم . ومعه سعادة الفريق عثمان المهدى باشا رئيس أركان حرب الجيش والأستاذ ابراهيم رياض محافظ القاهرة بالنيابة والقائمقام عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى .

وقد وصل نبالة نائب الملك الى مكان الاحتفال فى الساعة العاشرة صباحا وفى معيته صاحب العزة محمود يونس بك الأمين لرابع فعزفت الموسيقى السلام الوطنى وبعد ان صافح جماعة كبار مستقبليه اتخذ مجلسه فى صدر السرادق بين مظاهر الحفاوة والتكريم .

وقد بدئ الاحتفال بكلمة ألقاها مدير المتحف بين يدى نائب جلالة الملك تناول فيها كثيرا من المسائل التاريخية ونوه بفضل جلالة المليك ورعايته المتحف منذ نشأته الأولى .

ثم التمس معالى وزير الحربية من نبالة نائب الملك التفضل بافتتاح المتحف فغادر السرادق الى باب القصر وتقدم القائمقام عبد الرحمن

زكى بك بمفتاح المتحف الذهبى فى صندوق من الجلد فتناوله نائب الملك وفتح المتحف واخذ يطوف بأقسامه بينما كان مدير المتحف يدلى بما عنده عن المعروضات بدقة.

وظل صاحب المجد النبيل سليمان داود يطوف بأقسام المتحف نحو أكثر من ساعة وقد أعرب عن اغتباطه عندما علم بأن كل ما فى المتحف صنع بأيد مصرية وقد شاهد نبالته ما صف أمام المتحف وفى حديقته من مدافع الهاون الثقيلة ومدافع الحصون التى صنعت فى مصر وبعض المدافع التى اشتركت فى حروب استرجاع السودان .

وفى أثناء الطواف جلس نبالة نائب الملك فى قاعة مجلس ادارة المتحف ووقع سجل افتتاح المتحف وقدمت المرطبات خلال ذلك لنبالته ومن معه. ثم غادر نبالته القلعة عائدا إلى داره فى منتصف النهار .

تحقيقات معمارية

لما بنيت القلعة فى أيام صلاح الدين كانت مبانيها تشغل المنطقة الشمالية الشرقية من المساحة التى تشغلها القلعة فى الوقت الحاضر . وكانت لها ثلاثة أبواب .

الباب المدرج وباب القلة وباب القرافة . ويقع الباب الأخير — اليوم فى المنطقة الشرقية للقلعة ويرى الأستاذ كريزويل أن جزء سور القلعة الشمالى الذى يمتد من مسجد سيدى سارية الى زاوية السور عندما يدور للاتصال بالباب الجديد من أعمال محمد على الكبير . إذ أن خريطة القاهرة التى رسمها رجال الحملة الفرنسية لم يظهر عليها هذا الجزء من السور ومن المحتمل أن السور الشمال كان يمر فى مكان مبانى الواجهة الحالية بقصر الحريم الذى شيد فى أيام محمد على . وقد هدم لما بنى هذا القصر ثم شيد الى شماله السور الحالى الذى يفصله عن الواجهة الشمالية لقصر محمد على الحديقة الموجودة اليوم .

وما زال جزء من السور الشمالى الأصلى موجودا الى اليوم خلف مسجد سيدى سارية ويتصل بحائط القصر الشرقى . وما زالت قاعدة البرج المستديرة القديمة الذى كان عنده منحرف السور موجودة بقاياها الى اليوم ويبلغ قطر هذه القاعدة خمسين قدما . ومن المحتمل جدا أن يكون الشكل العام للبرج المذكور على مثل البرجين الآخرين اللذين فى السور الشمالى الشرقى [1] .

---

(١) لم توضح بقايا هذا البرج على خرائط المساحة بمقياس ١/١٠٠٠

ومن المأخوذ به أن بئر يوسف كان يقع فى محيط القسم الأصلى القديم فى قلعة صلاح الدين ولا ينتظر أن يكون البئر الذى يمد سكان القلعة بالمياه يقع فى خارجها وعلى ذلك يتبين أن يكون السور القبلى لقلعة صلاح الدين كان قد بنى الى جنوب السور الذى يقع فيه اليوم باب القلة ليدخل ضمنه البئر وقد أثبت الأستاذ كريزويل بعد قيامه بأبحاثه الأثرية صحة هذا الرأى كما أيد الرأى القائل بأن باب القلة الأصلى الذى هدمه قلاون فى ٢ سبتمبر سنة ١٢٨٦ (١ رجب عام ٦٨٥ هـ) كان فى موضع جنوبى الباب الحالى المعروف بهذا الأسم والذى يواجه الباب الشمالى لمسجد الناصر ـ بنى فى مكان هذا الباب قبة ـ وذكر أيضا كريزويل ما قاله المقريزى عن باب القلعة كما شاهده فى أيامه وكان فى المكان الذى يقوم عليه اليوم وأن الذى شيده محمد الناصر فى حوالى عام ١٣٢٠ ــ ١٣٢١ م (٧٢٠ هـ) .

ومن حسن الحظ أننا نجد نقطة محدودة لكل التحديد فى القسم الجنوبى للقلعة فى الكتابة المنقوشة بأسم السلطان محمد الناصر على بعد قدمين الى يسار البرج المربع الكبير فى الزاوية الشمالية الغربية من مسجد محمد على . وتدل هذه الكتابة على أن بدىء العمل فى البرج فى جمادى أول وانتهى فى شوال عام ٧١٣ هـ (أغسطس ــ سبتمبر ١٣١٣ ــ يناير فبراير ١٣١٤) والى جنوب هذا البرج توجد عدة دعامات تربطها بعضها ببعض عدة عقود يعلوها كوابيل حجرية كبيرة ولابد أنها بنيت لحمل الدعامات المربعة الكبيرة للقصر الابلق الذى شيده السلطان محمد الناصر عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) وانتهى مرة فى عام ٧١٤ هـ ولا تزال الى اليوم ترى أحجار هذا القصر الملونة ملقاة فى مكانها .

ويرى الاستاذ كريزويل وهو عمدتنا فى تاريخ القلعة من الناحية الأثرية أن توسيع القلعة تم فى أيام حكم محمد الناصر واتجه هذا التوسع الى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش فى عام ١٣٢٧ ١٣٣٨ (٧٣٨ هـ) وكانت مساحته أربعة أفدنة وقد شغل مكان الحفرة التى استمد فيها بناؤا القلعة الحجارة لبنائها . وكان هذا العمل كبيرا أخذ الأمراء على عاتقهم أن

يشيدوه برجالهم والاستعانة بحيواناتهم لنقل الرمل ومواد البناء . وقد اشتغل عدد كبير من أسرى الحروب مع رجال المماليك . وكان العمل مضنيا فمات منهم المئات . وفى هذا نجد تفسير وجود المرتفع الصناعى الذى ترتكز عليه القلعة فى الجزء الجنوبى كما يلاحظ الأثرى عند مقارنة طبيعة الأرض فى المنطقتين الشمالية والجنوبية للقلعة . (١)

ويختم الأستاذ كريزويل بحثه الأثرى للقلعة إلى أن اعادة اصلاح القلعة تم فى خمسة عهود .

١ — فى أيام السلطان برقوق على يد جركس الخليلى فى ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ (مارس ابريل ١٣٨٩ م) .

٢ — فى أيام السلطان جقمق فى ذى القعدة عام ٨٥١ هـ (يناير فبراير ١٤٤٨) .

٣ — فى أيام السلطان قايتباى .

٤ — فى أيام السلطان طومان باى فى رمضان عام ٩٠٦ هـ (مارس ابريل ١٥٠١) .

٥ — فى أيام الخديوى اسماعيل فى رجب ١٢٨٥ هـ (أكتوبر نوفمبر ١٨٦٨) .

وجميع عمليات الأصلاح هذه مثبتة فى كتابات منقوشة على جدران القلعة . وترى اليوم على الجدار الذى يقع الى يمين المدخل الخارجى لباب المدرج . وقد كانت تلك الكتابات التاريخية مثبتة فى غير ذلك المكان ولا يعلم بالضبط أين كان

---

(١) A brief Chronology of the Muhammedan Monuments of Egypt to A.D. 1517. Professor K.A.C. Creswell, 1916, Page 69 — 74.

بعضها . وقد ذكر الجبرتى أن والى مصر التركى اسماعيل باشا (١٦٩٩ — ١٧٠٤) قام بعمل عدة اصلاحات فى مبانى الزاوية الجنوبية الغربية (للقسم الجنوبى) كما شيد محمد على باشا الباب الجديد حوالى عام ١٨٢٥ كما شيد دار المحفوظات فى عام ١٢٤٤ﻫ (١٨٢٨ — ١٨٢٩) والى جانب تجديداته



(شكل ٣ — النسر المنقوش على جدار القمة الداخلى)

شيد الكثير من المستشفيات التى مازالت باقية الى اليوم — والى محمد على يرجع بناء جزء من السور الذى يربط مسجد سيدى سارية بالطريق المؤدى الى الباب الجديد — واليه يرجع أيضا بناء المبانى العلوية لأسوار القلعة التى تحتوى على أمكنة المدافع ومزاغلها ذات الطابع العثمانى القديم .

ملاحق

النصوص المنقوشة على جدر وأبواب القلعة .

تحصين القاهرة :

الأسوار الفاطمية ، السور الأول ، السور الثاني ، السور الثالث .

سور صلاح الدين ومجاري المياه القديمة .

أبو سعيد قرقوش مشيد القلعة .

ولاة القلعة .

النصوص المنقوشة على جدران القلعة

١ — لوحة الباب المدرج وهى من الرخام مقاسها حوالى ١٢٥ × ٦٩ سنتى مكتوبة بالنسخ الأيوبى وتشمل ستة سطور تاريخها ٥٧٩ هجرية نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر بانشاء هـذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة(١) التى جمعت نفعا وتحصينا وسعة على من التجىء الى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه و ولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته و معين دولته قراقوش عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

و يوجد تحت هـذه الكتابة داخل خرطوش مستدير قطره ٢٥ سنتى تقريبا سطران بالكوفى المزهر فى حروف متوسطة الحجم كتابة نصها : " الملك لله " .

٢ — لوحة تشغل جدران مدخل الباب المدرج ودركاته و باطن قبو المدخل مكتوبة بالنسخ الأيوبى تاريخها ٧١٣ هـ (السلطان محمد الناصر) نصها :

" اللهم أدم النصر و لتمكين والفتح المبين لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون أعز الله نصره (أنصاره) فاتح الأمصار ومبيد الكفار حامى حومة الدين " .

" عز لمولانا السلطان العالم العادل المجاهد المرابط السلطان الملك الناصر ناصر الدنيـا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره " .

---

(١) العرمة — من المحتمل عرمة يقال عرمة تراب أى تل من التراب .

Van Berchem 81-85

٣ — لوحة رخامية مثبتة بأعلى الكشف على الجدار الغربي لقمة أسفل دورة مياه مسجد محمد على وميدان العلم — فى ثلاثة أسطر مكتوبة بالنسخ المملوكى نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر بانشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا السلطان المالك الملك الناصر الغازى فى سبيل الله الحاج الى بيت الله الزائر قبر رسول الله حصن الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك منصور وبدؤه فى جماد (ى) الأول . والفراغ فى شوال سنة ثلاث عشر وسبعمائة " .

٤ — لوحة السلطان برقوق مثبتة على بعد خمسين مترا جنوب باب العزب المطل على ميدان محمد على — مكتوبة بخط النسخ المملوكى تاريخها ٧٩١هـ نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر بانشاء هذا الصور المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد عز نصره وذلك على يد المقر الأشرف السيفى جركس الخليلى أمير أخور . الملكى الظاهرى بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

(٥) لوحة السلطان جقمق مثبتة بمدخل الباب المدرج — عبارة عن سبعة أسطر مكتوبة بخط النسخ المملوكى . تاريخها ٨٥١ هـ نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أمر بتجديد سلم هذا المدرج بباب القلعة الشريفة سيدنا ومالك رقابنا الامام الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان العرب والعجم صاحب السيف والقلم والبند والعلم فضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب الديار المصرية والقلاع الشامية والثغور السكندرية

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق عز نصره بتاريخ ... من ذى القعدة الحرام سنة إحدى وخمسين وثمان مائة .

٦ — لوحة السلطان قايتباى مثبتة بمدخل الباب المدرج . عبارة عن ستة أسطر مثبتة على يمين اللوحة السابقة . مكتوبة بخط النسخ المملوكى تاريخها " مشوه " نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم أمر بتجديد هذه القلعة الشريفة السلطانية من فضل الله وعزته سيدنا ومولانا ومالك رقابنا سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين أبو الفقراء والمساكين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أيد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه (عشر كلمات ناقصة) .

٧ — لوحة السلطان طومان باى مثبتة تحت بضعة سنتمترات من اللوحتين السابقتين أبعادها ١٥٠ × ٨٠ سنتى . حروفها أوضح من كتابة اللوحتين المذكورتين مكتوبة بخط النسخ المملوكى . تاريخها ٩٠٦هـ نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أمر بتجديد هذه القلعة المباركة سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك العادل صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والبند والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عز نصره بتاريخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة " .

المغفور له محمد على الكبير

٨ — فى القسم السفلى للقلعة وهو الذى تشغله بعض مخازن سلاح الأسلحة والمهمات الملكى يوجد بورش الخيامية التى يوصل منها الى المسبك القديم وعلى بابه لوحة تذكارية من الرخام بها أبيات من الشعر بالكتابة هذه ترجمتها :

شيد محمد على باشا والى مصر الشهير

بناء عاليا هنا لصب المدافع

فنظمت أنا خيرت تاريخه الجوهرى

صار هذا البناء المتين العالى طوبخانة[1]

وخيرت أفندى شاعر وأديب بايغ وفد الى مصر فنال حظوة لدى محمد على باشا فعينه كاتبا بالديوان العالى فى أوائل سنة ١٢٣٧ هـ .

أما التاريخ الجوهر فهو حساب الحروف المنقوط فقط فى الشطر أو البيت المعتبر تاريخا . ومجموع الحروف المنقوطة فى الشطر الأخير فى النص التركى هو ١٢٣٦ هـ .

وهذا هو النص التركى لهذه الأبيات .

والى مصر محمد على باشا بنام

يابدى طوب دوكمك ايچون بونده بناى بالا

خيرتا جوهر تاريخنى قيلدم تنظيم

أولدى طوبخانه بونيان متين ووالا

سنة ١٢٣٦

(١) الطوبخانة هى الدار التى يصنع فيها المدفع .

٩ — الكتابه التركية المنقوشة على مقصورة ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا

فوق باب المقصورة " بسم الله الرحمن الرحيم " وتحت " البسملة " إن رحمه الله قريب من المحسنين

وترجمة الكتابة التى حول المقصورة :

حضرة ... والى ملك مصر مصر (عباس باشا)

أمر بانشاء هذه المقصورة بلطف الله المنان

كان أودع أمانه هنا فى تربه الغفران

جسم الحاج محمد على ساكن الجنان

فوضع جودت تاريخه بحروف مجوهرة

لقد قام بتخليد الأثر الآصف (آصف بن برخيا) القلزى الاحسان

١٠ — الكتابه التركية المنقوشة على باب الدفترخانه

محمد على باشا حاكم مصر الذائع الصيت

صارت طبقات الافلاك التسعة منازل لرفعته

وأرض عرشه ملجأ أهل المعارف

والشمس والقمر فراشتان حول شمع إقباله

لقد عمرت يد همته أم الدنيا

فلم تبق ديار خربة الا الخرابات

أطال الله عمره وزاد إقباله فهو الذى

جاهد بشجاعة فى سبيل الدين والدولة

انظر هاهو أنشأ لأجل حفظ دفاتر مصر

هذه الدفترخانه المتينة النادرة

فكن يا كاشف[1] فى التفكير فى تاريخها

أراق القلم ماء وجهه وقال دفترخانة ١٢٤٤ هـ

١١ — الكتابة التركية المنقوشة على باب القلعة القديم المواجه للدفترخانة وتاريخها ١٢٤٠ هـ ومطلعها :

خديو الخطة المعمورة أم الدنيا الذى

أشعة نجمة تنير أقطار العالم كالشمس

فلن يصيب صفوف الاسلام غم لأن

نصل خنجره يرد الجواب لأعداء الدين

. . . . .

١٢ — الكتابة التركية المنقوشة على باب الجناح الشرقى لقصر الجوهرة وقد ذكرناها فى الفصل الذى عقدناه للقلعة فى عصر محمد على باشا وتاريخها ١٢٤٣هـ .

١٣ — الكتابة التركية المنقوشة على باب القلعة وترجمتها :

والى مصر فى عهد محمد على باشا الكريم

خديو أعظم لم يأت فى الدنيا مثله

(١) هو كاشف أفندى باشكاتب جريدة الوقائع المصرية حوالى سنة ١٢٤٤ هـ وعضو مجلس المشورة العالى

ومن جملة أعماله ان كانت قلعة مصر خرابا

كالعظيم الرميم فجعلها كبستان إرم .

فليحقق الله آماله بالليل والنهار

وليشرح الله صدره فى كل آن .

وضع عزيز تاريخه فى شطرة بعون الله

جدد بناء قلعة مصر فى أساسها وجعلها قوية

١٤ — الكتابة المنقوشة بالضربخانة

لوحة الباب الداخلى — طغراء مكتوب بها : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد

وحول الطغراء فى الأركان الأربعة :

أبو بكر — عمر — عثمان — على

و بأسفل الطغراء

جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد على باشا[1] ... مصر حالا وكان ذلك فى عام ١٢٢٧ هـ

١٥ — لوحة الخديو اسماعيل من الرخام مثبتة على حائط السور قبلى باب الغرب بجانب وعلى يسار كتابة برقوق نفس المقاس مكتوبة بخط النسخ نصها :

" إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء وتجديد هذا السور المبارك . خديوى مصر حالا اسمعيل ابن الحاج ابراهيم ابن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة خمسة وثمانين ومائتين وألف " .

---

(١) يلاحظ أن كلمة والى غير موجودة فى النقش

لوحات حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

١٦ — الكتابة المنقوشة على باب المنبر الرخامى فى مسجد محمد على باشا ونصها :

" أمر بعمل هذا المنبر المبارك حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح فاروق الأول فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة ".

١٧ — الكتابة المنقوشة على التركيبة الرخامية على قبر جده العظيم وكذلك على شاهد القبر ونص الكتابة الأخيرة :

" بسم الله الرحمن إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون هنا مثوى والى مصر ومنقذها ورأس أسرتها المالكة المغفور له محمد على باشا. ولد نضر الله وجهه بمدينة قولة سنة ١١٨٢ للهجرة النبوية وولى مصر فى ١٧ من صفر سنة ١٢٢٠ هـ ولحق بربه فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ رحمه الله وطيب ثراه وبارك فى أسرته الزكية وسلالته العلوية " .

١٨ — الكتابة المدونة على قاعدة برج ساعة محمد على نصها :

" فى عهد الفاروق وبأمره الملكى الكريم تم ترميم هذا البرج وأصلحت الساعة المهداة إلى محمد على من ملك فرنسا لويس فيليب عام ١٨٤٥ م (١٣٦٢ — ١٩٤٣) .

١٩ — الكتابة المنقوشة على مدخل الباب الجديد ونصها :

فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول

فى يوم الخميس ٥ شعبان سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق ٤ يوليو ١٩٤٦ ميلادية أنزل العلم البريطانى على هذه القلعة وتسلمها الجيش المصرى وفى

يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق ٩ أغسطس ١٩٤٦ ميلادية تفضل جلالة الملك فاروق الأول برفع العلم المهدى فى جلالته بيده الكريمة على هذه القلعة .

٢٠ — الكتابة المنقوشة على أربعة لوحات رخامية مثبتة حول قاعدة سارية العلم منها لوحتان دونت عليهما أسماء وقائع الجيش المصرى منذ أيام السلطان صلاح الدين إلى أيام محمد على وعلى إحدى هذه اللوحات نقشت العبارات الآتية :

" بنعمة الله تعالى رفع حضرة صاحب الجلالة "

فاروق الأول

" ملك مصر وصاحب بلاد النوبة والسودان و كردفان ودار فور العلم المصرى خفاقا على هذه القلعة فى الثانى عشر فى شهر رمضان عام ١٣٦٥ هجرية الموافق يوم ذكرى وفاة المغفور له جده العظيم محمد على باشا الكبير "

وعلى اللوحة المواجهة لها نقش النطق الملكى الكريم . وقد سبق ذكره

٢ — تحصين القــاهرة

١ — الأسوار الفاطمية :

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن المــاضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها، ولهذا فإنه لمــا أنشأ القائد جوهر مدينة القــاهرة حرص على أن يقيم حولها ســورا سميكا من اللبن وفتح فيــه من الأبواب ما رآه ضروريا فى ذلك الزمان[1] .

وبعد انقضاء ١٢٠ ســنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيرا للخليفــة المستنصر أبو تميم معد أن النــاس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويسارا وفتح فيه أبوابا أمام الأبواب القديمة لتكون عوضا عنها .

ولمــا زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزيرا للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوارها القديمة التى كانت مبنية باللبن لكى يشمل السور الجديد مازاد على القاهرة فى غربها الى النيل وفى جنوبها الى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمــالى لأنها كانت مبنية بالحجر .

السور الأول :

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على سور القاهرة[2] أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـــ ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشاه من

---

(١) من مذكرات المؤرخ محمد بك رمزى ، وكتاب القاهرة للقائمقام عبد الرحمن زكى .

(٢) راجع الخطط المقريزية جـ ١ ص ٣٧٧

اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل فى دائرة سور القصر بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز، ورتب فى القصر جميع مايحتاج اليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده، فانه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى أقيمت بين هذا السور وسور بدر الجمالى، يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ على رأس حارة الوسايمة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير الى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على مبعدة عشرين مترا الى شمال جامع الحاج محمود المتو المعروف بجامع الشهداء ، حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القدس الذى كان بداخل باب النصر . ومن هناك يسير السور الى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح ثم يمتد السور فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجها إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى مكان الوجهة الغربية للمبانى الواقعة بشارع الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة

ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوبا إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على مبعدة ٢٠ مترا جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير الى الشرق الى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد الى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقا) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأهما جوهر بعضهما فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح وفى الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل الى دورب المحروق ، والى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يبدأ من النقطة المبينة بالخريطة ثم يمتد الى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ، ثم يمتد من تلك النقطة الى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية وليس لهذا السور أثر اليوم فى أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة حسب التحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى :

٢ — سور بدر الجمالى

يستفاد مما أورده المقريزى فى خططه لدى الكلام عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية[1] أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى

---

(١) الخطط المقريزية الجزء الأول ص ٣٧٩

فى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى و بين السور الحالى الذى فيه باب النصر و باب الفتوح الحاليين، ثم أضاف فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى و بين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

هذا هو ملخص تاريخ بناء السور الثانى . وأما من جهة تعيين موقعه وحدوده فإنه يستفاد مما قاله المقريزى، عند الكلام على باب النصر و باب الفتوح و باب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور البحرى الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة الذى يشغلها اليوم برج الظفر، ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح و ينتهى السور البحرى بحسب وضعه ورسمه المبين على الخريطة .

وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتحد من الجنوب بسور جوهر المبين على الخريطة ، وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ، ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج المبين على الخريطة .

وأما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر المبين على الخريطة ، ومن الغرب بسور من اللبن ، ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ، و يعاود سيره إلى الجنوب حتى ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب

الخلق ، وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق فى مكان الوجهة القبلية للبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى ، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يمضى من هذه النقطة إلى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلية للبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر ثم الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث تنتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتتبعه القارئ على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى المبين على الخريطة .

وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين باب الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى البابين المذكورين وعلى جانبى باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب ، وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن ، وأقام صلاح الدين فى مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى سوره الثالث الذى سنتكلم عنه .

تحصين القاهرة

٣ — فى عهد السلطان صلاح الدين

قال ابن أبى طى : أنه فى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) شرع السلطان صلاح الدين فى عمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره . وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا . وولاه لوزيره بهاء الدين قراقوش[1] .

ويقابلنا نص آخر أكثر وضوحا لعماد الدين ، كاتب سر صلاح الدين ، وهو شاهد معاصر كانت وثائق الدولة فى متناول يديه . وقد جاء فيه :

" كان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعهما فقال إن افردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند

(١) تاريخ القاهرة لكازانوفا — ص ٥٣٥

مفرد يحميها . وانى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاطئ إلى الشاطئ وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم . فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقطم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم . ووجدت فى عهد السلطان بيت رفعه النواب (النائب عن السلطان) وتكمل فيه الحساب ومبلغه . وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفا وثلاثمائة وذراعان (بذراع العمل وهو الذراع الهاشمى) . من ذلك ما بين قلعة المقسم (المقس) على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع . ومن القلعة بالمقسم (قلعة المقس) إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا . ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتان ذراع ودائر القلعة (من وراء القلعة) بجبال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشر أذرع وذلك طول قوسه فى أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع الهاشمى .

والمعروف أن الذراع الهاشمى يعادل ٦٥٢ من المتر .

وقد ذكر المؤرخ أبو شامه صاحب كتاب الروضتين ، عند ما أورد الكلام عن القلعة ، نص ابن أبى طى فى الفصل الذى تأتى فيه الكلام عن حوادث عام ٥٦٦ هـ ، ثم أورد نص عماد الدين عن القلعة فى حوادث عام ٥٧٢ هـ .

ولم يفت المؤرخ المقريزى أن ينقل التاريخين بدون تعليق . ويرى الأستاذ كازانوفا أن صلاح الدين بدأ يفكر فى بناء السور عام ٥٦٦ هـ ، ثم مثل مشروعه عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) عقب حملته إلى الشام ، وهذا الرأى هو نفس ما ذهب إليه الأستاذ كريزويل . أى أن عمارة سور القاهرة الثالث لم تستهل إلا فى سنة ١١٧٦ م .

السور الثالث :

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفى عام ٥٦٩ هـ انتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سورا واحدا ، فزاد فى سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل . فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة .

وقد ذكر المقريزى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى مبعدة قليلة منهما إلى جهة الغرب وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين .

رأى صلاح الدين أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ، ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج

وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها ، بين الخليج والنيل ، ولكى ينفذ هـذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سـنة ٥٦٩ هـ شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس ، وأتمه فعلا ، وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ، ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقى منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية .

(أولا) إن القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذاة الخليج ، هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وقتنا هذا سوى قطعة طولها ١٢٠ مترا كانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذاة حارة المسطاحى . فلمـا فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتـداد الشارع المذكور ولم يبق منهـا إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار ولم تزل إدارة حفظ الآثار العربية محتفظة بهذا الجزء للإرشاد إلى موقع السور القديم .

(ثانيا) إن السور البحرى الذى كان ممتدا بين باب الشعرية الذى يعرف الآن بباب العدوى و بين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميـدان باب الحديد ، وكان قائما إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ م ، وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يتبق منـه سوى بعض أجزاء لا تزال قائمة بلصق المساكن ومبينـة على خريطة القاهرة الحالية مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعـة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسـكة الفجالة وشارع الفجالة ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشـمبكى

والطيالة ، ومن الشرق بميدان العدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه إلى جهات الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

(ثالثا) السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عنه فى السور الثانى . وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما يشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ م أخذ فى طريقه جزءا صغيرا وبذلك أصبح السور البحرى ينتهى من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البزازة . وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرفة على شارع الأمير فاروق لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ م ، فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول .

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر .

(رابعا) أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوبا بطول ٤٠٠ متر وبناؤه متخرب ، وتتولى إدارة حفظ الآثار العربية الآن ترميمه وإصلاحه ، وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ مترا إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى وحائطه أغلبها سليم إلى اليوم ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانقة النظامية (جامع النظامى وقد خرب) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ١٢٥ مترا ، ويتصل من نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقى من السور الشرقى ، وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل الى سور مدينة مصر فانه لما تكلم المقريزى عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر . ولكنه تحدث عن أبواب القنطرة الواقع جنوبى مدينة مصر وهذا دليل على بناء السور فى الفترة المذكورة .

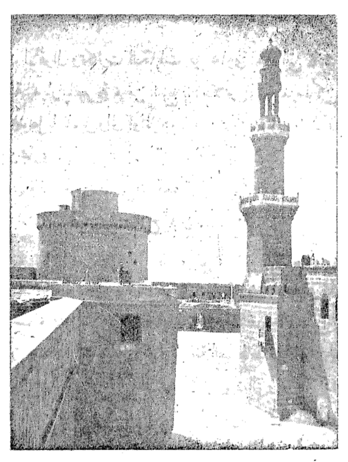
وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد عنى بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر الى القلعة كما عنى أيضا ببناء سور مدينة مصر ، فانى أرجح الرأى الذى ذكره المقريزى فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة ، أى الى مدينة مصر ، يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء فى المسافة من باب القرافة الى سور مدينة مصر ، وكان هذا الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ، ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء ، من النيل الى قلعة الجبل .

ويتبدى مما ذكر أن كتلة السور الشرقى للقاهرة فى المسافة ما بين قلعة الجبل وسور مدينة مصر لايزال يوجد من آثاره حائط المجرى (العيون) قائمة الى اليوم من باب القرافة بالقاهرة الى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة الى مصر القديمة عند الزاوية القبلية الشرقية فى جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القارئ مما ذكرناه نقلا عن القلقشندى أنه قال : أن السور الذى أنشاه صلاح الدين ما بين باب البحر والكوم الأحمر برأس منشاة المهرانى التى عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا أن هذا السور كان صلاح الدين عازما على اقامته على شاطىء النيل غربى القاهرة من ميدان باب الحديد الى فم الخليج المصرى ، ولكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره

المقريزى وهو أن صلاح الدين زاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب الشعرية الى باب البحر و بين قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل



(شكل ٤ — احدى مأذنتى جامع الناصر)

بجانب المقس وانقطع من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر القديمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه (١)

---

(١) يراجع هامش الجزء ٦ ص ١٧٦ و ١٧٧ من كتاب النجوم الزاهرة • المرحوم محمد رمزى بك

سور صلاح الدين ومجارى المياه القديمة

تعددت الأقوال وتكاثرت الكتابات على مجارى المياه التى كانت تجلب المياه لعاصمة الديار المصرية ، من الفتح الاسلامى إلى عهد ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا ، بل والى أوائل عصر الخديو اسماعيل وخلط كثير من الكتاب بين مجارى المياه والأسوار حتى إن مجرى العيون التى كانت توصل مياه النيل إلى قلعة الجبل اصطلح على تسميتها إلى عهد قريب ، لدى العامة وفى المكاتبات الرسمية ، مجرى صلاح الدين .

وفى العهد القريب ، من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٩ ، وفق المرحوم على بك بهجت ، مدير دار الآثار العربية ، إلى كشف جزء من سور صلاح الدين بحد ما كشفه من إطلال مدينة الفسطاط من الجهة الجنوبية الشرقية ، فأزاح الغموض عن كثير من الألتباسات التى وقع فيها كثير من المؤرخين السابقين ، الذين لم يبين لنا أحد منهم موقعة بالضبط . ولكن المنية عاجلته فلم يتنه من كشف بقية السور إلى قلعة الجبل ، وقد اكتفى قبل إخراج مؤلفه عن حفريات الفسطاط بعمل مجسات بسيطة على امتداد الجزء المكتشف إلى أن بلغ مجرى العيون .

وعندما تولى إدارة دار الآثار العربية الأستاذ المسيو جاستون فييت اقترح المرحوم الأستاذ حسن الهوارى ، أحد الأمناء ، الاسترسال فى كشف السور من المنطقة التى تركها بهجت بك متجهين إلى الجهة البحرية حيث قلعة الجبل فوافق مسيو جاستون على هذه الفكرة .

وبدأ العمل بطريقة فنية وتوالى الحفر بعناية زائدة فوق موقع السور من آخر جهة يلوح فيها . وكان العمال يحفرون حتى يبلغوا الصخر ، لأن المنطقة التى بها اطلال الفسطاط وسور صلاح الدين صخرية ، فاذا ما بلغ العمال الصخر توقفوا عن العمل ووجهوا جهدهم الى تنظيف السور وعمل صندوق أمامه ونقل هذه الأتربة إلى الجهة الأمامية الشرقية وتنظيمها بشكل جسر يصلح لأن تمر عليه العربات والسيارات، وفى الجهة الداخلية (الغربية) يواصل العمال فى الكشف عما عساه يوجد من دور الفسطاط .

ولم يكن هناك داع للكشف عن السور بطريقة أخرى غير هذه كرفع الأتربة طبقة فطبقة وكشف ما عساه يوجد فى كل طبقة على حدة ، فالمنطقة التى بها السور تكاد تكون على منسوب واحد ، وعثر العمال على السور بعد الحفر لعمق متر أو مترين على الأكثر وأحيانا أقل من المتر ، فلا توجد هناك طبقات تستدعى استخدام النظريات الأركيولوجية العويصة .

وقد كان من نتائج هذا الحفر المنظم أن كشف الأستاذ جزءا من السور يبلغ طوله ٨٤١,٣٥ مترا كشفت كلها كشفا تاما فظهرت فيه انحناءات لم يكن فى الوسع قبل الآن معرفتها كما ظهرت عدة دعامات ذات اشكال نصف دائرية لتقوية السور على أبعاد متقاربة البعد .

وفيما يلى بيان تفصيلى لما كشفه بهجت بك وما وفق الأستاذ الهوارى إلى كشفه :

ما كشفه بهجت بك

متر	بيان
٢٥,٠٠	جزء مستقيم من السور من أوله (الجهة القبلية) .
١٧,٠٠	« « بمجرى الساقى .

متر	بيـان
٦,٠٠	دعامة .
٥,٠٠	باب .
٧,٠٠	دعامة .
٣٨,٠٠	جزء مستقيم من السور .
٤٦,٠٠	» »
٨,٠٠	دعامة .
٧٠,٠٠	جزء مستقيم من السور .
١٣,٠٠	» »
٧,٠٠	دعامة .
٧٣,٠٠	جزء مستقيم من السور .
١١,٠٠	كمرية .
٣١,٠٠	جزء مستقيم من السور .
٣٥٧,٠٠	جملة ما كشفه بهجت بك .

ما كشف بعد وفاة بهجت بك :

متر		بيان
٣٥,٠٠ ١٥,٠٠ ٧٢,٠٠	١٢٢	جزء من السور مركب من ثلاثة خطوط مستقيمة
	٥,٠٠	الدعامة رقم (١)
٢٠,٠٠ ٥٥,٠٠	٧٥,٠٠	جزء من السور مركب من خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين رقم (١ و ١).
	٦,٠٠	الدعامة رقم (١)
٣٠,٠٠ ٤٠,٠٠	٧٠,٠٠	جزء من السور مركبا من خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين رقم (٢ و ٣) .

	بيان
	٦,٠٠ الدعامة رقم (٣) .
٤١,٠٠ ٢٠,٠٠ ١٩,٠٠	٨٠,٠٠ جزء من السور مركبا من ثلاثة خطوط مستقيمة محصورة بين الدعامتين (٣ و ٤) .
	٧,٠٠ الدعامة رقم (٤)
١٥,٠٠ ٢٨,٠٠ ٢٥,٠٠	٦٨,٠٠ جزء من السور مركبا من ثلاثة خطوط مستقيمة محصورة بين الدعامتين (٤ و ٥)
	٦,٠٠ الدعامة رقم (٥)
	٦٣,٣٠ جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٥ و ٦)
	٦,٠٠ الدعامة رقم (٦)
١٩,٢٥ ١٦,٠٠ ٢٤,٠٠	٥٩,٢٥ جزء من السور عبارة عن ثلاثة خطوط مستقيمة محصور بين الدعامتين (٦ و ٧)
	٧,٠٠ الدعامة رقم (٧)
	٦٣,٥٠ جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٧ و ٨) .
	٩,٣٠ الدعامة رقم (٨)
	٦٥,٥٠ جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٨ و ٩)
	٦,٠٠ الدعامة رقم (٩)
٤٠,٠٠ ٢٣,٥٠	٦٣,٥٠ جزء من السور عبارة عن خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين (٩ و ١٠)
	٦,٩٠ الدعامة رقم (١٠)
	٤٦,٠٠ جزء مستقيم من السور .
	٨٤١,٢٥

وتكون جملة المكتشف من السور ٣٥٧,٠٠ + ٨٤١,١٥ = ١١٩٨,٢٥ مترا

ومما يذكر أن بهجت بك كان يروم أن يدرس سور صلاح الدين على حدة في بحث خاص ، كما يستدل على ذلك من كلامه من كتاب حفريات الفسطاط حيث قال في آخر باب من أبواب هذا الكتاب ما نصه :

"وان أعمال الحفر أظهرت أجزاء من هذا السور (سور صلاح الدين) مما كان أعد لحماية الفسطاط من الجهة الشرقية وسنبين فيما بعد الظروف التي وضع فيها هذا المشروع وكيف نفذ وندرس تفاصيل بنائه".

إلا أن المنية عاجلته فلم يستطع تحقيق أمنيته .

والآن وقد ظهر من السور جزء كاف يمكننا من تحديد أبعاده على وجه كاف من الدقة لأن ما ظهر بجوار أطلال الفسطاط بين لنا زاويته القبلية الشرقية وزاويته البحرية الشرقية محدودة ببرج الظفر والجدار الغربي كان محاذيا لمجرى النيل في عهد صلاح الدين .

كان كازانوفا ، الأثري المعروف ، قد تسنى له في سنة ١٨٩١ عندما كتب عن (تاريخ قلعة القاهرة ووصفها) بوساطة النصوص التي أوردها المقريزي من تعيين تخطيط هذا السور تعيينا افتراضيا وقد حققت الحفريات ظنونه ، وقد صرنا الآن في مركز أحسن بكثير نظرا لكثرة الأجزاء التي كشفت من هذا السور .

فعلاوة على الجزء الذي كشفته دار الآثار العربية في عهد المسيو فييت فان هناك أجزاء أخرى أظهرها الكشف عن سطح الحاجز الجاري تحت إشراف الدار أيضا ، وهذه الأجزاء واقعة من الجهة القبلية من أطلال الفسطاط ، وهي على صغر أطوالها فقط هامة لأنها تبين ميل السور في هذه الجهة واتجاهه نحو شاطئ النيل .

وإلى شمال القلعة وفي الجهة الشرقية ، تم كشف جزء عظيم على امتداد الجناح الشرقي لبرج الظفر بفضل الأستاذ كريسويل .

وفضلا من سور السلطان صلاح الدين فقد ظهر جزء عظيم من سور القائد بدر الدين الجمالى فى الجهة البحرية من القاهرة الفاطمية ، بين باب الفتوح والخليج المصرى ، وقد هدمت منه مصلحة التنظيم الجزء الذى اعترض شارع الأمير فاروق الجديد ، وهذا الجزء من السور كان فى حالة حسنة على عهد صلاح الدين وكان لا يزال هو الحد البحرى لمدينة القاهرة ولم تمتد المدينة إلى الجهة الشمالية بل اكتفت بالأرض الفضاء الغربية التى تخلفت عن انحراف مجرى النيل مما كان سببا لاستبقاء سور بدر الجمالى حدا بحريا ومده فقط من الجهة الشرقية إلى برج الظفر ومن الجهة الغربية إلى شاطئ النيل الجديد .

وقد ظهر فى أوائل القرن العشرين بابان من أبواب سور القاهرة الذى بناه بدر الجمالى أولها باب القنطرة وقد أصلحت لجنة الآثار برجيه وعملت حوله خندقا ولكنها عادت وردمته لأنه كان معيقا لحركة المرور ، ومن جهة أخرى فقد أخذ العامة يلقون أتربتهم وأوساخهم فى الخندق مما جعل منظره قذرا واستدعى ردمه ، والثانى باب البرقية واقع على الشارع المعروف بشارع قطع المرأة الموصل إلى قرافة المجاورين وقد ردمته مصلحة التنظيم أيضا من أجل إصلاح الشارع . .

على أن هذين البابين لا أهمية لهما فى فحص سور صلاح الدين لأنهما ليسا منه بل من سور بدر الدين الجمالى ولم يستعملهما صلاح الدين .

وهناك نقطة أخرى حققها بهجت بك وهى أن الجزء الشرقى من مجرى العيون ابتداء من التقاء هذه المجرى بسور صلاح الدين مشيد على بقايا سور صلاح الدين .

ولكن الآن قد أصبح لدينا عدة نقاط من سور صلاح الدين تحدد على وجه قريب جدا من الدقة موقعه الأصلى وتبين مقدار طوله .

١ — جزءان صغيران من السور واقعان بين المحاجر فى الجهة القبلية من أطلال الفسطاط .

٢ — الجزء الذى يحد أطلال الفسطاط ومن الجهة الشرقية وجملة طوله ١١٩٨,٢٥ مترا منها ٣٥٧٠٠ مترا كشفها بهجت بك و ٨٤١٢٥ مترا كشفها الحوارى وبه باب واثنى عشر دعامة (لم يكن مكشوفا منه عند ما كتب الكابتن كريسويل وصفه الوجيز إلا ٣٥٧ مترا) .

٣ — جزء ضائع هدمه عمال المحاجر ولم يتبق منه شىء مطلقا يبلغ طوله وكان على امتداد الجزء السابق الى الشمال .

٤ — جزء لم يكشف بأجمعه ولكن بهجت بك عين فيه عدة نقاط بجسات عملها على امتداد الجزء المكشوف .

٥ — جزء من السور أقيم فوقه جزء طويل من مجرى العيون وهو المجاور لقلعة الجبل .

٦ — جزء كبير من السور مشيد فوقه عدة مساكن من قرب باب الوزير إلى قرب الدراسة .

٧ — النهاية البحرية من الجانب الشرقى للسور وتنتهى ببرج الظفر

٨ — جزء يبدأ من برج الظفر متجها إلى الجهة الغربية حيث يختفى السور تحت الأتربة .

٩ — جزء يبتدئ من نقطة اختفائه تحت الأتربة إلى باب النصر .

١٠ — من باب النصر إلى برج سلم باب الفتوح وطوله ٢٥٨ مترا و ٦٩ سنتيمترا .

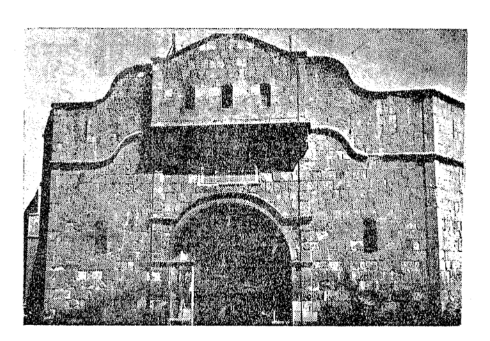
١١ — من باب الفتوح إلى شارع الأمير فاروق .

١٢ — عرض شارع الأمير فاروق .

١٣ — من الضفة الغربية لشارع الأمير فاروق إلى جامع أولاد عنان وهذا الجامع فى موضع جامع القس الذى كان مشرفاً على النيل وبه عدة أجزاء بين المساكن مرسومة فى خريطة القاهرة (١ : ٥٠٠٠) ذكرها الأستاذ كريزويل .

١٤ — الجزء المحاذى للنيل من جامع القس إلى فم الخليج .

فاذا جمعنا هذه الأربعة عشر جزءا بعضها إلى بعض ألفينا أن طول سور صلاح الدين كان ٢٥٠٠ كيلومترا تقريبا به جزء صغير فى الجهة البحرية من سور بدر الدين الجمالى وهى من الخليج المصرى إلى شرق باب النصر[1] .



(شكل ٥ — الباب الثانى للقلعة "عصر محمد على")

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . الجزء ٦ ص ١٧٦ و ١٧٧

وراجع A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D. 1517. Professor K. A. C. Creswell, Page 4-56 and 66-69.

أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين [١]

مشيد القلعة

لاتكاد مصادر التاريخ تذكر شيئا واضحا عن نشأة قراقوش ، إذ كل مايعرف عن نشأته أنه فتى رومى خصى ، ولد ببلاد آسيا الصغرى ، وكبر بها ثم اتصل بأسد الدين شيركوه ، وكان هذا الضابط يعمل هو وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة ملك عظيم من آل زنكى ، هو عماد الدين المعروف بالشهيد ، ثم مات هذا الملك ، وخلفه على حكم الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخويين ، وانتفع بهما انتفاعا عظيما .

وفى دمشق تسمى الفتى الخصى باسم بهاء الدين عبد الله الأسدى ، فأما تسميته بابن عبد الله ، فكناية عن أنه لايعرف له أب مسلم ، وأما وصفه بالأسدى ، فنسبه الى أسد الدين شيركوه ، ولعله اشترى هذا الفتى بماله وتملكه ثم أعتقه ، أو لعله نسبه لنفسه لأن الفتى أسلم على يده ، والولاء كان فى العرف بطرق ، من أهمها هاتان الطريقتان ، وكثيرا مايكون بهما معا . ثم لما مات أسد الدين ، واتصل الفتى بخدمة ابن أخيه صلاح الدين ، صار يدعى بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الناصرى .

والظاهر أن رجال الجيش فى دمشق كانوا قد أنسوا من هذا الفتى الرومى رشدا ، ووجدوا فى أخلاقه ميلا إلى الشدة والصلابة ، والقدرة على مواصلة العمل فأدنوه منهم ومنحوه الرتب العسكرية التى شجعته على خدمتهم ، وضربوا به المثل فى الصبر والجلد والمثابرة ، فما لبث بهاء الدين قراقوش أن أصبح أميرا من أمراء الجيش ، الذى كان يرأسه أسد الدين شيركوه ، وهو الجيش الذى دخل مصر يوم دعى نور الدين إلى التدخل فى شؤونها ، و إلى تهدئة الأحوال بها ، ثم إلى ضمها جملة إلى التاج الأتابكى ، فذهب إليها أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، و بصحبتهما ذلك الفتى الرومى ، الذى

---

(١) قراقوش ومعناها بالتركية الطائر الأسود — ابن خلكان (الجزء الأول — ص ٥٤٣)

شهد بعينه انهيار الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، وكان دعامة من الدعائم التي قامت عليها هذه الدولة الفتية الناشئة .

قراقوش في حراسة القصر الفاطمي

وفي عام ٥٦٤ هجرية اضطرب رجال القصر الفاطمي ، وعمهم الذعر والفزع ، وسعى بينهم من حذرهم عاقبة الوزارة الجديدة ، وهي وزارة صلاح الدين ، ووقفهم على نيات هذا الرجل الخطير ، وأملها يومئذ تفكيره في إزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية .

وانه لأمر خطير حقا ، أن تزول دولة وتقوم دولة ، أو أن يسقط عرش ويحل محله عرش ، ومن أجله دبرت المؤامرات في داخل القصر وخارجه ، وأخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة ، وكانت أولاها مؤامرة داخل القصر الفاطمي ، دبرها خصي أسود اسمه "المؤتمن" ، أراد بها إسقاط صلاح الدين والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته . وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضي من ناحية ، ولولا سيف الملك شمس الدولة بن أيوب وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين من ناحية ثانية .

في هذه الآونة فكر المؤتمن ورجاله أن يملأوا أيديهم من ذخائر القصر الفاطمي التي توشك أن تضيع منهم الى الأبد ، وكان من أغراضهم في ذلك أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة .

عرف ذلك الوزير صلاح الدين ، فلم يمض وقتا طويلا حتى هداه تفكيره الى خادمه الأمين ، وصديقه الغيور ، بهاء الدين قراقوش ، يجعله متولى القصر الفاطمي ، يحرسه ويصون ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وإمكان إخفائها .

ثم مات الخليفة الفاطمى ، وكان صلاح الدين قد انتهى من قطع اسمه من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه فريعون بالقصر . وتولاهم الخوف والفزع. فدعا السلطان الملك الناصر صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش . وزوده بالأوامر لمواجهة الحالة الجديدة ، منها أن تزداد عنايته بالقصر، فلا يخرج منه شىء أو تدخل فيه شىء إلا باذنه، ومنها أن يضاعف الحيطة لأهل الخليفة وذوى قرابته . وأن يخرجهم من القصر إلى مكان عينه له ترسل اليهم فيه كسوتهم وأزوادهم فنقلوا إلى (دار برجوان)، وهى دار كبيرة واسعة بالحارة المسماة بهذا الاسم من حارات القاهرة ومن تلك الأوامر التى تلقاها الأمير بهاء الدين قراقوش، أن يعزل الرجال فى القصر عن النساء لئلا يتناسلوا ويكثروا ، ويمتد ظلهم ، فيساعد ذلك على أن يعيدوا الدولة الفاطمية . قال "وأما الجوارى والعبيد ، فلك أيها الأمير أن تطلقهم ولك أن توزعهم، ولك أن تطلق البيع فيمن بقى منهم بعد ذلك كله ، حتى لا يزدحم بهم القصر" ، بذلك ختم السلطان الملك الناصر حديثه الذى ألقاه على صديقه ثم تركه يعود إلى القصر ، ليتولى بنفسه تنفيذ الأمر .

فعاد الأمير إلى القصر ، وفتح عينيه يومئذ على كنوزه ، فمن ملابس وجواهر ، إلى قلائد ودرر ، إلى ياقوت وزمرد إلى مصوغات ذهبية وأوان فضية ، ومنسوجات مغربية ، و"صوان صينية" وأخرى منقوشة بالميناء ، ومن قطع ثمينة من الخزف ، إلى تماثيل عظيمة من البلور ، على هيئة الوحش أو الطير ، إلى حلل وثياب ، إلى طيب وطرائف ، إلى عقود من الزبرجد والجوهر ، الذى لا نظير له فى العالم كله ، إلى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والأبنوس ، إلى بسط خيطت بالذهب والفضة ، إلى ستائر وأغطية من الديباج ، وقد نسجت فيها الرسوم الفاخرة ، والصور الرائعة ، الى كؤوس من حجر غال ، قالوا إن من خواصه الوقاية من السم وكانت هذه الكؤوس تصنع للأمراء والملوك ، لتوضع فيها الأشربة ، فيغير لونها إن كان بها شىء من السم . ذلك كله عدا

الأسلحة والسروج ، والخيم والبنود . وأما العرش الفاطمى نفسه فكان مرصعا بالدر والجوهر ، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص .

أما خزانة الكتب فقد ذهب المؤرخون أيضا إلى أنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام أعظم منها ، فقد كانت بالقصر مكتبة مفهرسة ، فقيل يوما للأمير بهاء الدين قراقوش . إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ولا بد من تهويتها وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة وكان قراقوش جنديا لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الادب ، فأخرجها ، ثم ظهر أن هذا الطلب إنما كان حيلة مدبرة من تجار الكتب ، يريدون بها تفريقها وخلط أنواعها ، فتم ذلك ، واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة .

وكان فى خزانة الكتب مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءا مجلدا إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدا ، ففرق الدلالون هذه الأجزاء ، لتقل قيمة الكتب ، وتباع بأبخس الأثمان ، هذا مع أنهم كانوا يعرفون مواضع أجزائها ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها .

وكان الأمير قد استأذن مولاه صلاح الدين فى بيع هذه الكتب الهائلة ، فأذن له السلطان فى بيعها ، ولم يظهر حرصه عليها ، لما زعم يومئذ من اشتمال أكثرها على كتب فى عقائد الشيعة الفاسدة وآرائهم الدينية المتطرفة ، وهو إنما أتى إلى مصر لأغراض من أهمها محاربة هذه العقائد والآراء حتى لا يبقى فى مصر من يميل اليها ، أو يأبه لها .

فعمل الأمير بأمر مولاه فى الكتب ، كما عمل بأمره فى غير الكتب وجعل لبيعها فى القصر يومين من كل أسبوع ، واستمر البيع فيها وفى ذخائر القصر مدة طويلة .

وكذلك نجح الأمير قراقوش فى القيام بمهمته ، فحافظ كل المحافظة على نفائس القصور وذخائره ، وبذل عنايتها فى صونها وكان أمينا كل الأمانة

فى بيعها ، وجمع المال الحاصل من ثمنها ، وإذا صح أنه غلب على أمره فى شىء من ذلك كله ، فهو "خزانة الكتب" وله فى ذلك عذران واضحان: أولهما جهله بقيمة هذه الكتب ، وثانيهما خوف صلاح الدين من هذه المكتبة واساءته الظن بها إساءة جعلته لا يهمه من أمرها أكثر من جمع المال الحاصل من بيعها .

فاحتال فى اقتناء هذه المكتبة، وفى انتهاز هذه الفرصة النادرة، كثيرون من التجار وأهل الأدب وكان نصيب القاضى الفاضل منها نصيب الأسد، فقيل إنه ظفر يومئذ بألوف من الكتب ، أسس بها مدرسة فخمة سماها باسمه وخدم بها مذهب السنة، الذى انهارت بسببه دولة، وقامت له دولة، وأتى صلاح الدين كما قلنا لنشره ، والقضاء على جميع المذاهب التى كانت تناقضه .

قراقوش منشىء الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق من وجوه، يمكن أن ترد كلها إلى سبب واحد، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية ؛ عنيت الأولى منها بنظام الدواوين واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين، ومن الموظفين. واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ فى شيئين هما التغلب على مذهب الشيعة فى داخل مصر، ثم إحراز النصر النهائى على الفرنج واجلائهم عن القدس .

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين الى منشآت حربية ومدنية كان من أهمها إذ ذاك إقامة الجسور ، وتطهير الترع ، وتشييد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها شر الغارات التى تأتى اليها من جانب الفرنج تارة والشيعة المنبثين فى بقاع كثيرة من العالم الاسلامى تارة أخرى .

ومن هذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بهاء الدين قراقوش يبذل في جهده وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجلد، وعزيمة يوشك أن لا يكون لها حد، ثم مواهب هندسية ميرحان ما كشف عنها صلاح الدين وأفاد منها في حروبه فائدة ليس إلى انكارها من سبيل .

ولعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ، بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم وتشرف منها على القاهرة كلها . لم يقم فيها السلطان صلاح الدين . وبموته سكن القلعة من بعده ابنه العزيز، ثم في عهد الملك الكامل من ملوك بني أيوب ، تم بناء هذه القلعة العظيمة ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقر الحكومة ، واستمر الحال على ذلك الى زمن المغفور له محمد على باشا . ثم لم يكن إلا في عهد اسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة الى دور أخرى وسط مدينة القاهرة . غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة الجبل حتى اشتغل في بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقس وهي برج كبير بناه الأمير على النيل . وبنى بالقرب منه ابراجا أخرى على النمط الأفرنجي لا النمط البيزنطي وسبب ذلك فيما يظهر ان صلاح الدين اختلط في أثناء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق في أثناء هذه الحروب وعرف كيف يبنون قلاعهم وحصونهم ، ووازن بينها وبين حصون الفاطميين وقلاعهم فظهر له أن حصون الفرنج أصلح من الوجهة الحربية . ثم ما كاد الأمير يستريح أيضا من بناء هذه الابراج والحصون له حتى شغل نفسه بمشروع آخر هو إقامة سور عظيم حول مصر والقاهرة ، قطع الحجارة له من الأهرام الصغيرة وبناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة منها .

أقبل الأمير قراقوش على بناء السور وبنى فيه جامعا ، وحفر في القلعة بئرا ، وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية يدور البقر من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها وتدور أبقار أخرى في وسطها فينقل الماء من أسفلها وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء وقيل أن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل وأن ماءها كان عذبا في أول الأمر ، ثم أراد قراقوش الزيادة في مائها فوسعها فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها .

وكان هذا السور الذى بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التى أحاطت بالقاهرة الى عهده ، أما الأول فكان قد بناه القائد الرومى جوهر الصقلى وأما الثانى فكان قد بناه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى الفاطمى ، وكان هذان السوران الأولان قد بنيا من اللبن ، أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة ووقف عند قلعة المقسى ، لم يستطع أن يصلها بمصر .

عند ذلك كتب القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة طويلة منها قوله " والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ويمتد عليهما رواقه ، فما عقيلة كان معهما ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتجلى بغير منطقه نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وآمنوا من يد تتخطف ، وبجوم يقدم ولا يتوقف . . " فلما قرأ السلطان الرسالة سر بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش ، وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيرا ، إذ قيض لها مثله ومثل وزيره القاضى الفاضل .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجليلة وكان السلطان كلما احتاج إلى عمارة قلعة ، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر أو إقامة سور ، أو بناء برج ، عهد إليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة .

ولعل آخر ما قام به من ذلك عمارته لسور عكا سنة ٥٨٥ هـ ، وذلك فى أثناء المحنة التى مرت به وبالمسلمين .

قراقوش الجندى فى حصار عكا

كان قراقوش جنديا له شخصيته البارزة فى الجيش ، غير أنه كان ذا ميول حربية هندسية ، عرفها السلطان صلاح الدين ، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال التى ذكرنا لك طرفا منها ويذهب هو إلى القتال ومعه قواده وأبطاله ممن كانوا يحسنون الكر والفر فى الميدان . ومن أجل ذلك لم نسمع عن بهاء الدين قراقوش أنه اشترك فى حرب للسلطان إلا حين كان يدعوه السلطان الى إقامة الأسوار ونحوها ، فاذ ذاك لا يجد الأمير بدا من الذهاب معه .

ومضت السنون، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج، واستولى منهم على بيت المقدس، ثم تقدم فى فتوحه، حتى يسر الله له فتح حصن من أكبر حصون الفرنج، وهو حصن عكا، فملك السلطان هذا الحصن المنيع، ولكن بعد أن دفع فيه الثمن غاليا، من المال والأنفس، واستشهد فى ذلك اليوم أخ للفقيه عيسى الهكارى وأتى الناس يعزونه، فأنكر عليهم ذلك وقال " هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء" .

وكان سور المدينة تهدم من شدة القتال، فرأى السلطان أن يترك المدينة والحصن للأمير قراقوش، ويذهب هو لامتلاك الحصون الأخرى، قبل أن يجمع الفرنج شملهم، أو يأتيهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر. فبقى الأمير فى هذه المدينة، وبقيت معه حامية ليست بالكبيرة، وسهر فى إقامة ما تهدم من السور وعكف على عمله هذا بهمة لا تعرف الملل، وعزيمة لا يلحقها خور، وهو واثق من أمر الله الذى وهب للمسلمين النصر حتى ملكوا هذا الحصن، لا بد أن ينصرهم ويساعدهم على قهر الافرنج، حتى لا يجدوا بدا من الجلاء عن الشرق. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان حدث أن الفرنج بعد انهزامهم اجتمعوا فى حصن آخر من حصونهم، واتفقوا على أن يذهبوا بجموعهم إلى عكا، حيث يظلون محاصرين لهذه المدينة، أو تأتيهم المدد الذى طلبوه من بلادهم، وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا الحصار بال المسلمين منهم، فقد أصبح بينهم وبين أن يطردوا الفرنج من البلاد نهائيا، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة حصون كانت لهم على الساحل .

فضرب الحصار على عكاء عامين، ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرين بل ذاقوا هناك أقسى ماعرفته المحنة الصليبية من ألم وتحملوا فيها أشق ما مر بها من جهد ونصب، حتى لقد نفذت الأقوات من المدينة وكان على المسلمين أن يمدوا إخوانهم فيها بالطعام والميرة ولكن الفرنج كانوا كثيرا ما يحولون بينهم وبين هذا العمل، الذى تتوقف عليه حياة المسلمين فى هذه المدينة البائسة. فانتشر فيهم الجوع وفغر الوباء فاه ،

ليبتلع الجند الذين أصبحوا ولا قدرة لهم على مشقة الحروب ، والعدو مع ذلك يمطرهم وابلا من عذابه من خارج الحصن .

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد ، وكلما فكر جنده فى التسليم للعدو مناهم وأملهم وشد عزائمهم ، وما يزال بهم حتى يرجعوا عن هذا العزم ، ويتقدموا شجعانا كعادتهم لإخافة هذا الخصم .

ومع ذلك شاءت الأقدار أن تخذل هذا الأمير الصابر فى الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده فى هذه المحنة القاسية . فأتى المدد إلى الفرنج من ملوكهم فيما وراء البحر ، ووقف ملوك الصليبين صفا واحدا أمام جيش صلاح الدين ، فوهن المسلمون يومئذ ، ودخل الملوك المسيحيون عكاء وانهالوا على أهل المدينة نهبا وذبحا وأسرى ، وكان الأمير نفسه ممن أسروا ، وبقى فى الأسر حتى أفرج عنه (١) حين عقد الصلح . وكان يوم الإفراج عنه يوم سرور عظيم ، إذ فرح به السلطان الفرح كله ، لما كان له عليه وعلى الإسلام كله من الحقوق ، فبقى الأمير إلى جانب السلطان لم يفارقه حتى فارق السلطان هذه الدنيا .

قراقوش وابن مماتى

تلك صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وتلك أعماله المجيدة وبلاؤه الحسن فى خدمة الدولة الأيوبية ، لم نذكرها كلها ، وإنما ألممنا بالمهم منها من جهة وما اتفق عليه المؤرخون جميعا من جهة ثانية فلم نذكر أنه اشترك فى فتوح السلطان صلاح الدين بأوسع من هذا المدى الذى وصفناه ، ولم نذكر أن السلطان العظيم كان يعتمد عليه بين حين وحين فى إخماد الثورات التى كانت تشتعل فى القاهرة نفسها ، دفاعا عن الدولة الفاطمية التى انتهى أمرها ، وشاء القدر أن تقضى على يديه نحبها .

---

(١) أطلق سراح الأمير قراقوش فى يوم الثلاثاء ١١ شوال سنة ٥٨٨ هجرية .

ولكن شاء القدر أن يساط على هذا القبس العظيم دخان كثيف يحول بينه وبين الناظرين اليه ، فلا يصل اليهم حتى يؤذى العين منظره ولا يسر النفس أن تدنو منه ، وهكذا الشمس المشرقة إذا اصطلحت على إخفائها السحب ، بل هكذا الحق الأبلج حين تكتنفه الريب .

ذلك أن أديبا جليل الخطر ، هو ابن مماتى ، عرف أنه كتب فى هذا الأمير كتابا كله سخرية ، فانتشر الكتاب وذاع ، وتسلى بقراءته ، وتمعنوا بفكاهته . وحلت فى أذهانهم هذه الصورة الجديدة محل الصورة القديمة[1] .

ولكن يكفى أن مؤرخا جليل القدر كابن خلكان يقضى على هذه الصورة المشوهة فيما كتبه عن الأمير الجليل ...

وقد لفظ الأمير قراقوش أنفاسه فى مستهل رجب سنة ٥٩٧ هجرية بالقاهرة ، ووورى فى تربته المعروفة به بسفح المقطم .

(١) كتاب حكم قراقوش — الدكتور عبد اللطيف حمزة — مطبعة مصطفى البابلى الحلبى ومن هذا الكتاب اقتبسنا هذا الفصل .

ولاة القلعه

أشرفت القلعة على جميع النظم العسكرية ، فى خلال حكم الدولتين : الأيوبية والمملوكية ونهض فى أرجائها التنظيم الحربى الباهر ، الذى اتسمت به الدولة المملوكية فى مصر . وقد عرف عن سلاطينها جهادهم المعروف فى مقاومة الصليبيين والمغول وكذلك العثمانيين مدة ثلاثة قرون ونيف .

ونحن لانتناول هنا وصف هذا التنظيم الراقى ، الذى تميزت به جيوش السلاطين المماليك فى وادى النيل ، بل سنقصر الكلام على أسماء السادة وكبار الموظفين الذين تولوا الاشراف على القلعة ، من حيث الإدارة العسكرية والمحافظة على الأمن فيها .

كان يهيمن على القلعة ، فى أيام المماليك ، ضابطان يختصان بوظيفة الاشراف عليها : أولها نائب القلعة أو والى القلعة وثانيهما والى باب القلعة (كتاب ديوان الانشاء الذى نقل عنه الأستاذ المستشرق كازانوفا ويرجح أن مؤلفه هو صاحب كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — جمال الدين أبو المحاسن تغرى بردى) [1] .

ويقول كازانوفا إن الفصل الأول من هذا المخطوط الهام اشتمل على ذكر الرتب الحربية الست الأولى لقادة الجيش المملوكى المعروفين بأرباب السيف حسب الترتيب التالى :

---

[1] المكتبة الأهلية بباريز — مخطوط رقم ١٥٧٣ .

١ — الأمراء المقدمين الذين يقودون حوالى الألف من المشاة أو مائة من الخيالة[١].

٢ — أمراء الثمانين أو السبعينات الذين يقودون ثمانين أو سبعين

٣ — أمراء الطبلخانة (الفرقة الموسيقية) و يقودون أربعين[٢].

٤ — أمراء العشرات[٣] .

٥ — أمراء الخمسات قادة الخمسة[٤] .

٦ — الجند وهم يكونون جنود الحلقة أو المماليك السلطانية .

---

(١) قيل للأمراء المقدمين — أمراء مائة مقدمو ألف — والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة .

وكان أصحاب هذه الرتبة أعلى مراتب الأمراء . وشوهد أصحاب هذه الرتبة ، أيام المماليك ، يتولون جميع المناصب العليا بمصر ، أمثال نائب السلطنة ، ونائب الغيبة ، ونائب الوجه البحرى والدوادار الكبير والأستادار ونائب حلب وما يضارع ذلك من الوظائف الكبرى

(٢) كان لأمراء الطبلخانة الأحقية فى دق الطبول على أبوابهم كما يفعل السلطان وأمراء المئات . ولكن على صورة مصغرة . ويظهر انهم كانوا يسمون بأمراء الطبلخانة لهم عن هم أقل منهم فى الرتبة وليس لهم طبلخانة . ومن الوظائف التى جرى أسنادها اليهم وظيفة الدوادار الثانى ووالى القلعة ووالى القاهرة ونائب الإسكندرية ونائب طرابلس وحماة بالشام (محمد مصطفى زيادة — السلوك ص ٢٣٩)

(٣) كان يشغل أمراء العشرات وظائف والى الفسطاط رشاد الدواوين ووالى القرافة

(٤) معظم أمراء الخمسات كانوا من أولاد الأمراء المتوفين ، تعطى لكل واحد منهم هذه الرتبة رعاية لسلفه ، وكانوا يعتبرون من أكابر الأجناد

وقد تكلم المؤلف ، فى المقصد الثالث ، عند تناوله الحديث عن أمراء الطبلخانة أنه كان عددهم اثنى عشر أميرا يحملون لقب هذه الوظيفة (أمراء الطبلخانة) تاسعهم نايب قلعة الجبل ، وواجبه المنوط به الاشراف على أعمال حراسة الأبواب والأبراج ، والمحافظة على المعتقلين بها والذخيرة ، وعلى فتح باب القلعة وغلقه ، واليه ترفع المحاكمات فى القاعة من عامته ، وهو الذى يدير أعمالها عند خروج السلطان ويلاحظ الأسوار والمنافذ ، وهو الآمر بعمارة ما يحتاج إليه (المخطوطة المذكورة) .

وفى المقصد الرابع ، عندما تحدث عن أرباب الوظائف من أمراء العشرات وكان عددهم ثمانية أمراء — كان خامسهم والى باب القلعة وهو الباب الثانى بعد الباب المدرج وكان مسئولا عن غلقه وفتحه ومراقبة حراسه وله بالقرب منها دكة وله جماعة تحت أمره يأمرهم بالأعمال التى يخبرها لهم .

وقد كان باب القلة ، فى وقت ما ، الباب الثانى فى الأهمية بعد الباب المدرج ، لأن باب السركان لايستخدم إلا فيما ندر ، وكان باب القرافة المواجه لباب المدرج والذى يطل على جبل المقطم من الشرق قد أهمل أمره فى القرن الرابع عشر .

ولقد ظلت وظيفة نائب القلعة أو واليها محتفظا بها حتى دخل العثمانيون مصر عام ١٥١٧ فأهمل أمرها ولم يصل الى علمنا اذا كانت قد استبدلت بأخرى .

هذه هى واجبات صاحب هذه الوظيفة ، وسنذكر أهم أمراء الجيش الذين تقلدوها منذ إنشائها .

١ — الأمير علاء الدين طيبرس المنصورى والى باب القلعة المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنون على الخليج الكبير خارج القاهرة ، وكان حاكما حازما توفى فى عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) .

٢ — علم الدين سنجر الأحمدى متولى قلعة الجبل فى أول صفر عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) .

٣ — بيبرس الأحمدى (الأوحدى ؟) عين فى ٨ صفر ٧٢٠ هـ وعزل

٤ — كندغلى العمرى . ولى القلعة فى الثانى من ذى القعدة عام ٧٣٦هـ (١٣٣٥ م) .

وقد ذكر أحد المؤرخين أنه ولى القلعة هؤلاء الثلاثة :

عبد الملك الناصرى (٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م) ، ثم طار نطاى (٧٢٥ هـ — ١٣٢٤ م) ثم الأمير بهاء الدين (٧٢٦ هـ — ١٣٢٥ م) ثم نقل كندغلى العمرى فى ١٥ ربيع الأول عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) الى نيابة البيرة . وفى ٢٠ منه عين عز الدين ايدمر الزراخ أمير جاندار .

٦ — سيف الدين ايدق . عين فى أول ربيع الأول عام ٧٤٠هـ (١٣٣٩) وعين على باب القلعة أرغون شاه أمير عشرة وهو أول من يقابلنا من الموظفين الذين شغلوا هذه الوظيفة

٧ و ٨ — وفى عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) عين اثنان على ولاية القلعة هما الأمير ارنان والأمير قطلوبغا الذهبى ، كما عين آخران على ولاية باب القلعة وهما الأمير كشلى السلاح دار وعلى الماردانى .

٩ — وفى أيام السلطان شعبان الثانى (٧٦٤—٧٧٨ هـ) كان على القلعة سيف الدين كلنيال الماردانى الذى مات فى عام ٧٨٩ هـ وكان قد أنعم عليه بأمرة طبلخانة كما ذكر المؤرخ الجوهرى

١٠ — وقد ذكر مؤرخ آخر اسماً لأمير سراج الجمشبجاوى عين على القلعة عام ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) عوضاً عن طشتمر المظفرى بعد أن أضيف اليه إمرة طبلخانة وقد مات سراج عام ٧٩٠ هـ

١١ — وكانت مدة خلفه الأمير سبيع قصيرة فى ولاية القلعة وقد سماه الجوهرى والى القلعة .

١٢ — بجاش النوروزى نائب القلعة.وهو الذى وكل اليه فى ٢٧ صفر عام ٧٩١ هـ التأكد من شخصية الخليفة المتوكل .

١٣ — قطلوبغا السيفى — ٧٩١ هـ — ١٣٨٨ م .

١٤ — جابان أخى مامق .

١٥ — صارم الدين ابراهيم بن بلرغى ٧٩١ هـ وحكم عليه بالسجن فى عام ٧٩٢ هـ ثم أفرج عنه واخلع عليه وأعيد الى وظيفة ولاية القلعة .

١٦ — لما جلس السلطان برقوق على العرش فى عام ٧٩٢ هـ عين الأمير سودون النظامى نائبا للقلعة .

١٧ — فى عام ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) عين الأمير فارى الاسنبغارى واليا للقلعة

١٨ — الأمير كشبغا الجمالى (٨١٣ هـ — ١٤١٠ م)

١٩ — شاهين الرومى (٨١٤ هـ — ١٤١١ م) .

٢٠ — عين الملك المؤيد شيخ — الأمير — بردبك

٢١ — أسندت ولاية القلعة للأمير ازبغا الزردكاش وكلف بتحصين القلعة وشحنها بالزاد والغلال .

٢٢ — تسلم القلعة الأمير يلبغا الناصرى

٢٣ — ازدمر خيا (؟) فى عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) .

٢٤ — الأمير طوغان .

٢٥ — الأمير أحمد الملطى .

٢٦ — فى عام ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) تولى نيابة القلعة الأمير جقمق العلائى .

٢٧ — فى عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ م) ولى تغرى برمس نيابة القلعة .

٢٨ — فى عام ٨٣٨ هـ (١٤٣٤م) خلع على تانى بك نيابة القلعة الذى عزل سنة ٨٤٢ هـ ثم توفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) .

٢٩ — قرر جقمق النورى فى نيابة القلعة سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م).

٣٠ — خلع على الأمير تانى بك البرديكى ، أحد أمراء الألوف ، بنيابة القلعة فى ربيع الأول عام ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) .

٣١ — وفى عام ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) عين تغرى برمش الفقيه — ويحتمل أن يكون هذا الوالى نفسه الذى ولى القلعة المرة الأولى فى عام ٨٢٧ هـ . وقد نفى إلى القدس فى العام ذاته .

٣٢ — وولى فى مكانه الأمير سيف الدين يونس بن عبد الله العلاى الناصرى الأمير اخور فى ١١ صفر عام ٨٤٩ هـ وقد مات بالطاعون عام ٨٦٤ هـ (١٤٥٩ م) .

٣٣ — وفى عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ولى قانباى الأعمش الناصرى عوضا عن يونس . وكان أصله من مماليك الناصر فرج .

٣٤ — بعد موته قرر تعيين سودون النوروزى السلحدار ، وتوفى فى السبعين من عمره ، وكان من مماليك نوروز الحافظ نائب الشام . جعله الملك الأشرف اينال نايب قلعة الجبل بعد موت قانباى المذكور . فدام فى النيابة إلى أن مات سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٧ م) .

٣٥ — استقر كسباى المؤيدى .

٣٦ — فى عام ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) عين خير بك القصروى ، وفى أيامه غادر مقره فى باب المدرج ، وبقى باب القلعة بغير ضابط

٣٧ — عين سودون البردبكى الفقيه المؤيدى عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) وعزل .

٣٨ — تولى النيابة تغرى بردى ططر الظاهرى .

٣٩ — وفى عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) قرر بيبرس فى نيابة القلعة .

٤٠ — تولى الأمير قانباك أبوشامة .

٤١ — فى عام ٩٠٥ هـ عين جانبلاط .

٤٢ — خلع على الأمير ارزمك وصار نائب القلعة عوضا عن الأمير جانبلاط .

٤٣ — وفى ١٩ شعبان عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) عين السلطان طومان باى الأمير طوخ المحمدى واليا القلعة .

٤٤ — وفى أوائل عام ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) كان الأمير طقطباى نائب القلعة الذى ظل ينهض بأعباء وظيفته الى ٢٠ رمضان ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) حين عين كبيرا لأمناء السلطان (حاجب الحجاب) واخلع على ثانى بك الاشرفى

٤٥ — ثانى بك الأشرفى

٤٦ — الأمير خير الدين ، احد أمراء الجيش وكان آخر نواب القلعه على عهد السلاطين المماليك (١٥١٧) .

وبانتهاء الحكم المملوكى ، قضى على هـــذه الوظيقة الجليلة ، ولا نعلم إذا كان محمد على باشا قد أعادها فى أثناء حكمه .

مراجع الكتاب

— أبو شامة :

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . جزءان . القاهرة ١٢٨٧ ﻫ .

— أبو المحاسن — جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبع ١٠ أجزاء — القاهرة .

— على مبارك باشا :

الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها و بلادها القديمة المشهورة .

— عبد الرحمن الجبرتى :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . طبعة بولاق ١٢٩٧ﻫ . أربعة أجزاء

— تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى :

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة بولاق ١٢٧٠ﻫ . جزءان

طبعة النيل ١٣٢٤ﻫ . أربعة أجزاء

— جلال الدين السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . مجلدان — القاهرة .

— القلقشندى :

صبح الأعشى ١٤ مجلدا — القاهرة .

— عبد الرحمن زكى (القائمقام) والدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الاداب فى مصر الإسلامية — القاهرة ١٩٣٨

— عبد الرحمن زكى (القائمقام) :

القاهرة — جزءان — القاهرة ١٩٣٢ و ١٩٣٥

القاهرة من المعز إلى الفاروق — القاهرة ١٩٤٣

الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير — القاهرة ١٩٣٩

— ابن إياس

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ثلاثة أجزاء .

— محمد عبد الله عنان :

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية — القاهرة — ١٩٣١ .

— حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية — جزءان — القاهرة ١٩٤٦

كراسات لجنة حفظ الآثار العربية — القاهرة .

١٨٨٣ — ١٩٢٠

— الدكتور عبد اللطيف حمزة .

حكم قره قوش — مطبعة مصطفى الحلبى .

— مذكرات المرحوم الأستاذ حسن الهوارى أمين دار الآثار العربية .

— مذكرات المرحوم الأستاذ محمد بك رمزى .

المراجع الأفرنجية

— P. Casanova :

Histoire et Description de la Citadelle du Caire; memoires publiés par les membres de la mission Archéologique Française du Caire. Tome Sixieme, 1897.

— Professor K.A.C. Creswell :

Archeological Researches at the Citadel of Cairo Cairo, 1924.

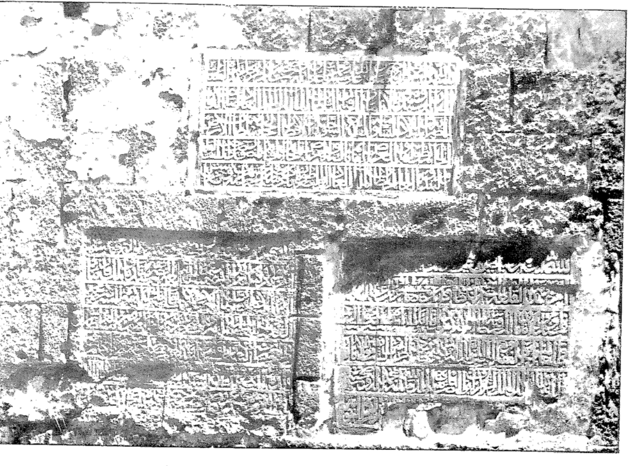
— Description de l'Egypte, 2e édition, Paris. 1821, t XVIII et Atlas.

الجزء الخاص بوصف القلعة (ص ٣٤٧—٣٦٣ و ٥١٨—٥٢٢) الذى كتبه جومار .

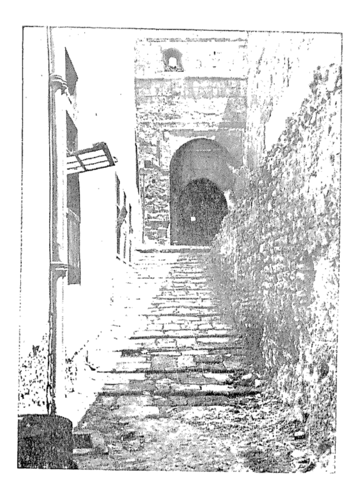
— Stanley Lane - Poole :

The Art of the Saracens in Egypt. London, 2,86.

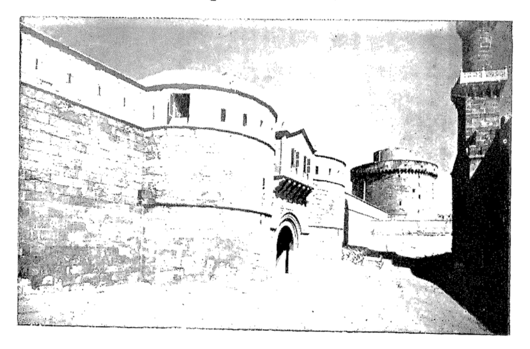
المطبعة الأميرية ١٩٤٩-٨٦٤١-١٠٠٠٠



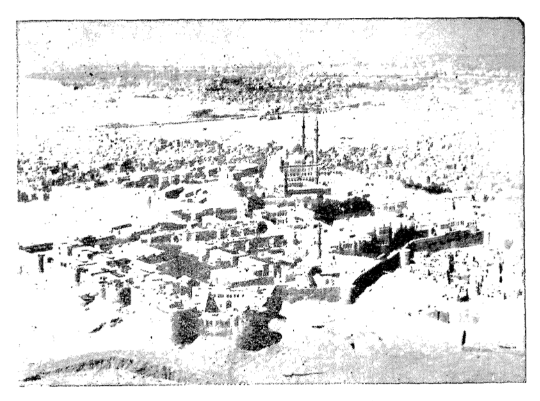
(شكل ٦ — الكتابات المنقوشة على جدار الباب المدرج)



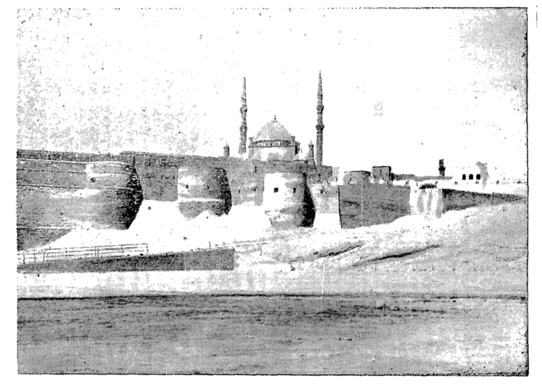
(شكل ٧ — الباب المدرج)



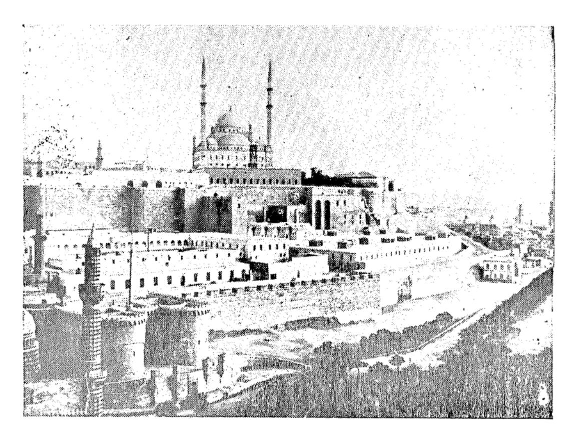
(شكل ٨ — باب القلعة — أمام مدخل جامع الناصر الشمالى)



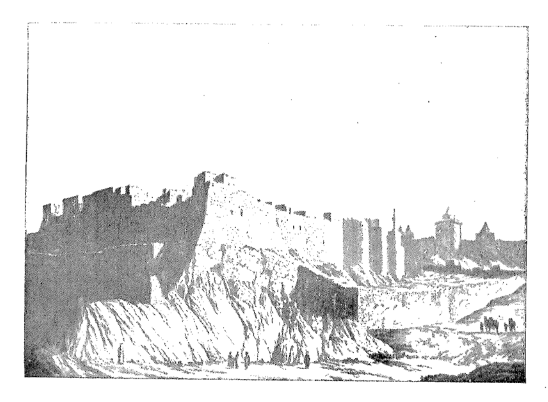
(شكل ٩ — منظر عام لقلعة من الجو)



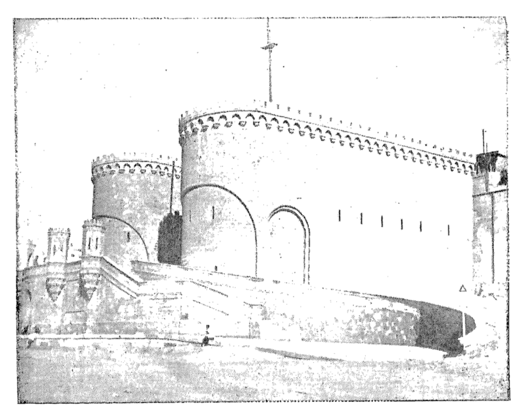
(شكل ١٠ — جزء من السور الشرقي لقلعة)



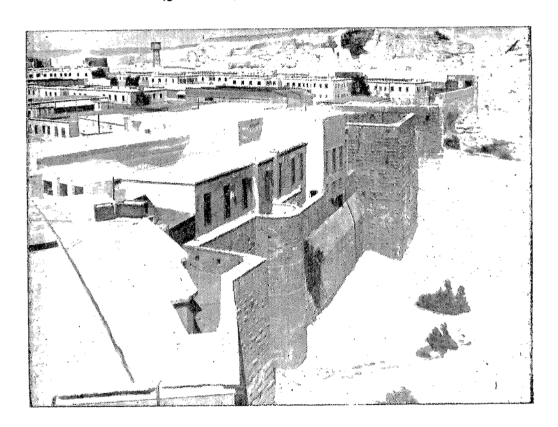
(شكل ١١ — مسجد محمد على يطل على مدينة القاهرة)



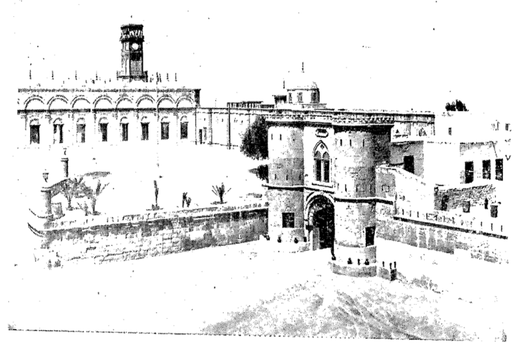
(شكل ١٢ — الجزء الأمامى للسور الشرقى للقلعة)



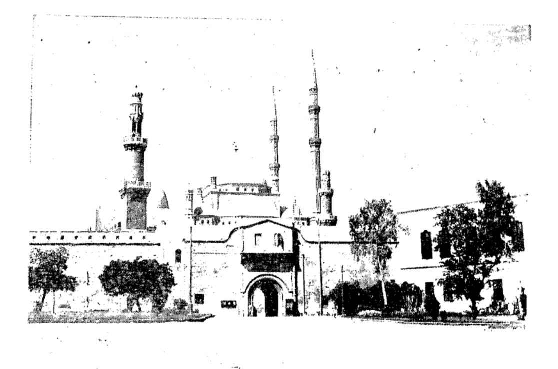
(شكل ١٣ — باب العزب المطل على ميدان محمد على)



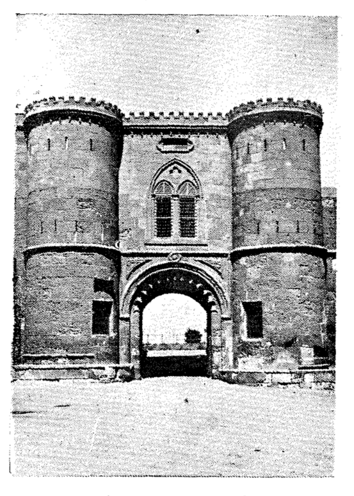
(شكل ١٤ — الجزء الشمالى لسور القلعة)



(شكل ١٥ — الباب المؤدى الى ميدان العلم)

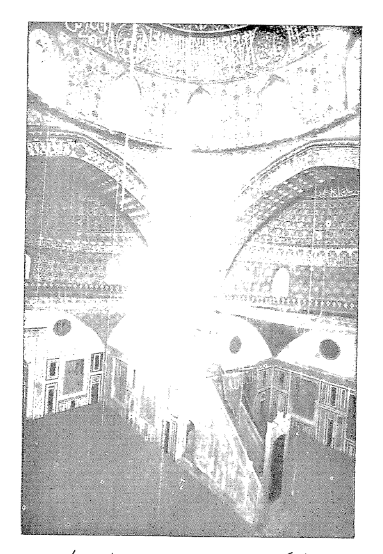


(شكل ١٦ — باب القلعة الداخلى المطل على فناء المتحف الحربى)

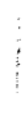


(شكل ١٧ — باب ميدان العلم)

(شكل ١٨ — فناء مسجد الناصر)



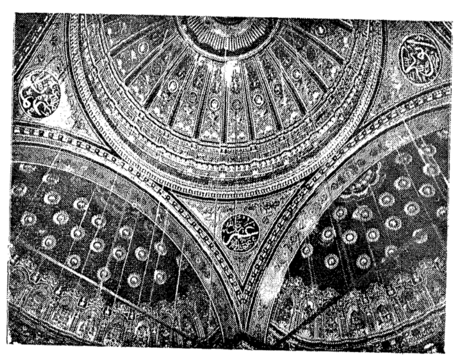
(شكل ١٩ — مسجد سيدي سارية من الداخل)



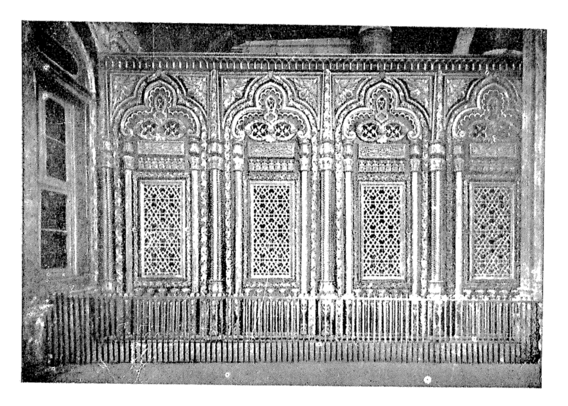
(شكل ٢٠ — صحن مسجد محمد علي)



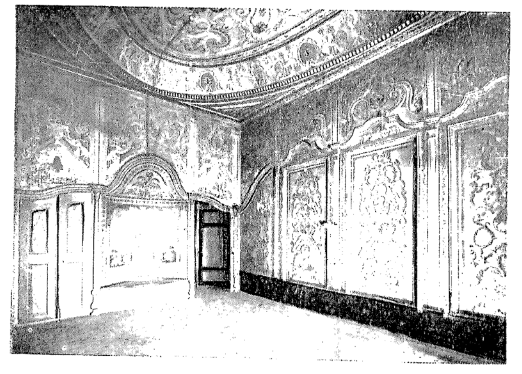
(شكل ٢١ — منظر تام لمسجد محمد علي)



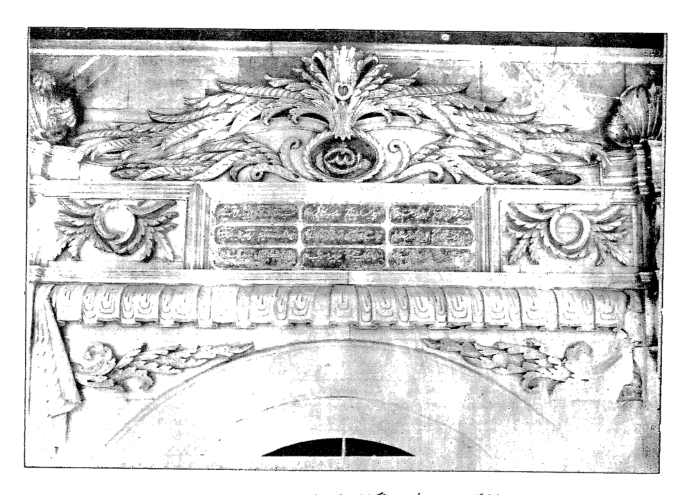
(شكل ٢٢ — نقوش القباب التي تعلو مسجد محمد علي)



(شكل ٢٣ — مقصورة ضريح المغفور له محمد على باشا)



(شكل ٢٤ — احدى قاعات قصر الحرم (المتحف الحربى)

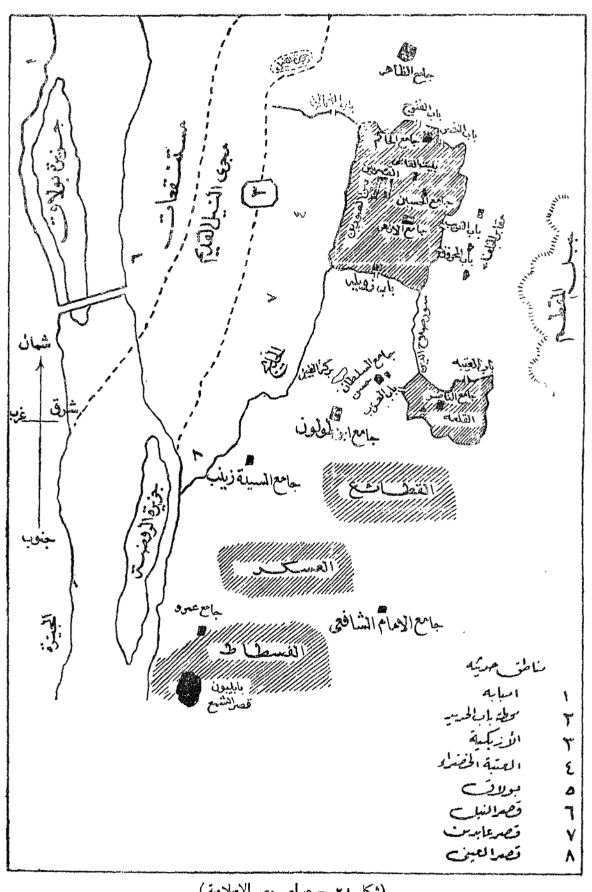


(شكل ٢٥ — احدى الكتابات المنقوش على باب قصر الحريم)

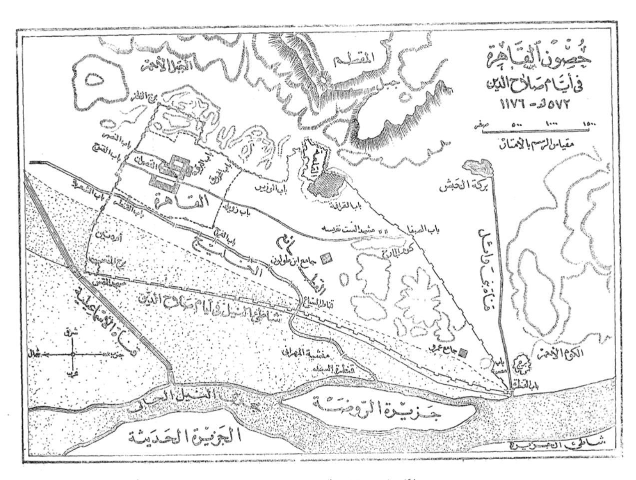


(شكل ٢٦ — حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول يوقع اسمه الكريم عند رفع العلم)

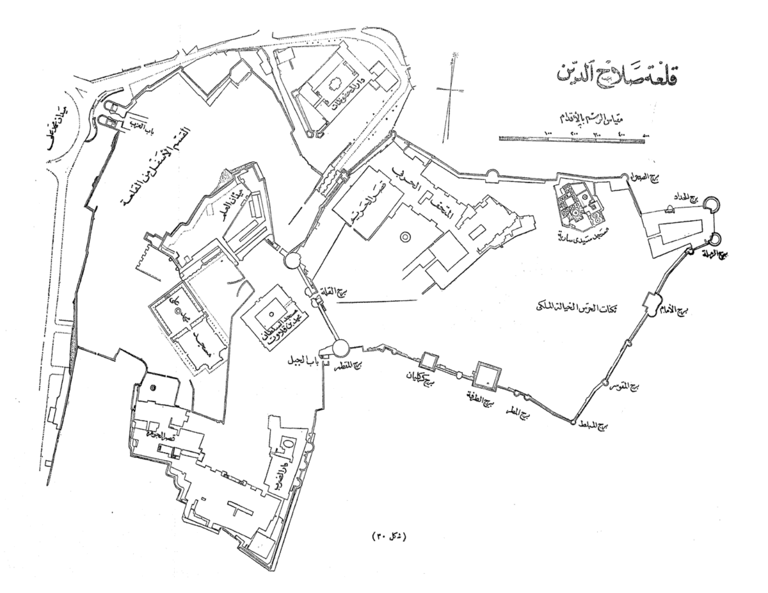
(شكل ٢٧ — رفع العلم المصرى على ساريته احتفالا بجلاء القوات البريطانية عن القلعة)



(شكل ٢٨ — عواصم مصر الإسلامية)



(شكل ٢٩) حصون القاهرة في أيام السلطان صلاح الدين



قلعة صلاح الدين
مقياس الرسم بالأقدام
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
دار المحفوظات
ميدان محمد علي
باب العزب
القسم الأسفل من القلعة
ميدان العلم
قصر الحريم
المتحف الحربي
مسجد سيدي سارية
برج الحداد
برج الرملة
ثكنات الحرس الخيالة الملكي
برج الإمام
برج القلة
مسجد السلطان محمد بن قلاوون
مسجد محمد علي
باب الجبل
برج المقطم
برج كركيلان
برج الطرفة
برج المطر
برج المقوصر
برج المبلط
قصر الجوهرة
دار الضرب

(شكل ٣٠)

